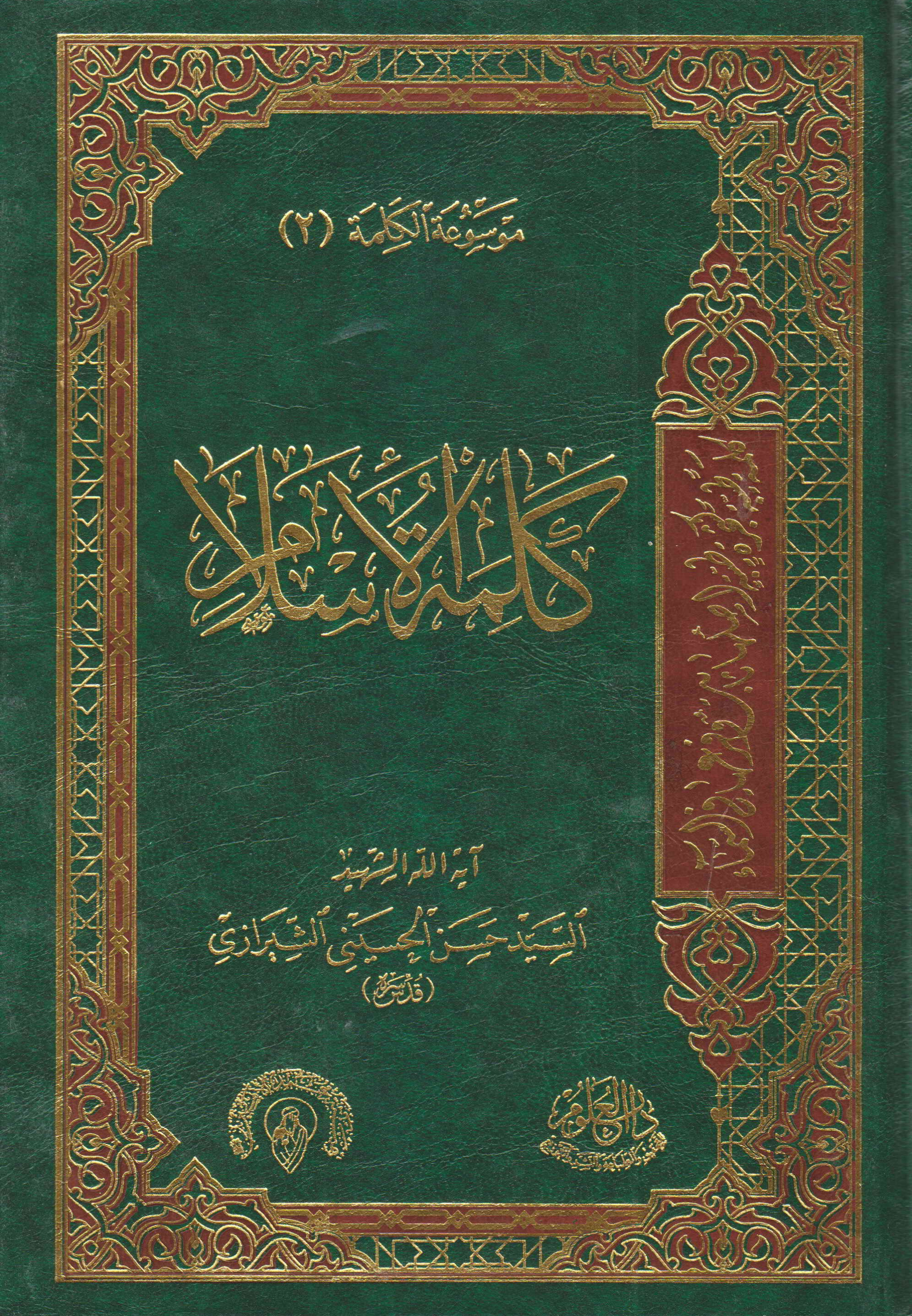

موسوعة الكلمة (٢)
كلمة الإسلام
آية الله الشهيد
السيد حسن الحسيني الشيرازي
(قدس سره)
دار العلوم


كلمة الإسلام

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م



الكويت - تلفن: ٠٠٩٦٥٢٤٥٥٦٩٦ - فاكس: ٠٠٩٦٥٢٤٥٧١١٧
لبنان: ٠٠٩٦١٣٦٠٣٩٧٢- Email: ali-abdo42@hotmail.com



المكتب : حارة حريك - شارع السيد عباس الموسوي - تلفاكس : 01/545182 - 03/473919
ص .ب : 13/6080 - المستودع : بئر العبد - مقابل البنك اللبناني الفرنسي - هاتف : 01/541650
www.daraloloum.com E-mail:info@daraloloum.com

موسوعة الكلمة (٢)



آية الله الشهيد
السيد حسن الحسيني الشيرازي
(قدس سره)







بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله تبارك وتعالى..والصلاة والسّلام على محمد وآله، صلى الله عليه وآله وسلم، واللعن على أعداء الله، لعنة الله عليهم أجمعين...



توجيه القرآن



﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(١).

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥٩.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1].

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾[2].

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[3].

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾[4].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾[5].

صدق الله العلي العظيم

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الروم، الآيات: ٣٠ ـ ٣٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٤) سورة الشورى، الآية: ١٥.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٣٠.




مقَدّمة




بسم الله الرحمن الرحيم

عاشت الأمة الإسلامية، عصور الظلم والظلام في النور، فلما تفتح عصر النور تدهورت الأمة في الظلم والظلام، ثم هي تحاول اليوم، الخروج من الظلمات إلى النور ولا تستطيع... فكيف انحدرت الأمة، من قمة الكمال إلى درك الهوان؟.. ثم كيف يمكنها العروج من درك الهوان إلى قمة الكمال؟..

أما الاستفهام الثاني، فجوابه تاريخ الأمة نفسها، فلقد كانت ـ في جاهليتها الأولى ـ اقليات مضطهدة، تتحكم فيها أقوى السلطات والتيارات، التي تركتها بقايا سيوف وفضلات رماح، شعارها السيف ودثارها الخوف.

ثم تنزّل الوحي بأكرم الرسالات على محمد بن عبد الله.

فتكتلت تحت لوائه لتنفيذ الإسلام، وأيّدها الله بجنده ونصره، حتى أصبحت خير أمة أُخرجت للناس...

والأمة اليوم ـ في جاهليتها الثانية ـ أصبحت أقليات مضطهدة، تتحكم فيها أقوى السلطات والتيارات.. بقايا استعمارات وفضلات

حروب، شعارها السلاح ودثارها الاحزاب والثورات، التي تمعن فيها تشويهاً وتمزيقاً.

وهي تستطيع القفز من واقعها الفاشل، إلى واقع أفضل، إذا رجعت بكليتها إلى الإسلام، فلن يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلُح به أوله، ولم يصلح أوله إلا بالتخلص من كل ما يعبد من دون الله إلى الإسلام. وعندئذ ينجز الله وعده، بجنده ونصره، لتعود الأمة خير أمة أخرجت للناس...

***

وأما الاستفهام الأول وهو: «كيف انحدرت الأمة من قمة الكمال إلى درك الهوان»، فهو ما نحاول الجواب عليه في هذه الصفحات، بتحليل الصفحات الغامضة من حياة الأمة، واستنتاج العبر منها كي لا تتكرر المأساة.

***

لقد سلخت الأمة أدوارها البدائية، متوفرة ضخمة ـ على خلاف سيرة الامم التي تنشأ ضئيلة هزيلة ـ لأن الله قد خصها بالمقدسات، وخصها التاريخ بالحضارات، وخصها الإسلام بمناعة ارتطمت على جبروتها أعتى الامواج الزاحفة من كل مكان، لطمسها وكبت ارادتها المتدفقة، التي كانت تهدد كل باطل وكل مبطل بالإفناء.

ثم جاءت، بعد فترة التضخم، فترة الهزال التي نفضت اللحوم عن العظام، فقد انحرفت قيادتها إلى قادة، ما أنزل الله بهم من سلطان، ولم يؤمنوا بالله ولا بالرسول وجعلوها تراثاً تنتظر بها الحبالى، وتتحكم في مصيرها الإماء ـ بعد ما كانت قيادة تضمنها العصمة، ويقررها الله بنصٍ

صريح ـ. . . وثار المسلمون بقيادة الامام الحسين، وواصلوا الكفاح الاعزل حيناً والمسلح أحياناً، حتى انتزعوها عن «الأُسرة الأموية المروانية» ولكن انتهزتها «الأسرة العباسية» وكان نتاج عبرتها من العهود المبادة قبلها: ان توغلت في المتاهات وامعنت في الانحراف.

وتتابعت ثورات مخلصة وانتهازية، غير أن المخلصة كانت تفشل، (والانتهازية) كانت تنجح، فتتحكم فيها الاستئثارات الفردية، فتشغلها بشهواتها، وتجمدها عن الانطلاق إلى الهدف المصيري الحاسم، وتنحرف إلى حيث تنفضّ عنها الأمة، أو ينقضّ عليها ثائر، أو لا يبقى لها في الأمة رصيد ولا قاعدة تثبتانها وتسورانها عن الاعتداءات فتتسارع الحكومة العباسية، للطغيان عليها واستدراجها، فيسدل عليها الستار، أو لا تبقى منها إلا عبرة، تشهرها «الاسرة العباسية» لتوتير أعدائها، وتضعيف الثورات ضدها. . .غير أن اليأس لم يقدر على تجميد الأمة كلها، وإن سيطر على القطاعات الواسعة منها، فبقي الأفق مربداً تتراقص في حواشيه البروق، وتزأر الرعود، ولكنها كانت أعجز من أن تخرق مسامع الحكام المتسلطين، الذين انغمسوا حتى قمم رؤوسهم في السكر والمجون. . . ووجد المصلحون، الذين حاولوا نصح الحكام بالتي هي أحسن، ولكن عندما أرادوا الاتصال بهم، وجدوا دونهم الف باب وباب، وحينما راموا التفاهم معهم، رأوا بينهم الف حجاب وحجاب، وشاؤوا تصميم الحركات التأديبية ضدهم، فشاهدوا بانتظارهم الف تفسير وتفسير، والف تهمة وتهمة، فاقتنعوا بتسجيل مشاعرهم للتاريخ. . . وبعد ما اطمأن الحكام المنحرفون، إلى استقرار مراكزهم، واختناق المعارضة، انصرفوا بكلهم إلى إشباع مطامعهم، وسخروا الدولة

الإسلامية كلها، للتوفر على ارواء هذه الاطماع حتى التخمة.

فتوغلوا في السكر والمجون العابث، الذي تقدر غيبوبته الاسابيع، ونظموا رحلات الصيد، التي تقيس فتراته الشهور، وتواروا في شؤونهم الخاصة عن قضايا الأمة والدولة، مدداً تطاول السنوات. وتوسعت القصور التي تمسحها عشرات الاميال، وملأوها بالشعراء الذين تعدهم المئات، واستوردوا من أطراف الدنيا كل جميل وجميلة، حتى كان لكل خليفة جحافل من الجواري والغلمان، التي تحصيها الالوف، واشتروا ملكات الجمال والمغنيات، بمئات الالوف والملايين، ووصلوا أقرباءهم بعشرات الملايين، وجمدوا في خزائنهم خزائن الارض، التي تقيمها مئات الملايين وألوف الملايين.. وأهدروا دماء سلالات، وأبادوا قبائل، واستأصلوا أسرا عن بكرة آبائهم، وشحنوا السجون وأكثروا الأغلال، وعاشوا مردة جبابرة، أصغر مستخدم عندهم يزيد على أكبر فرعون، باسم الرسول الذي كان رحمة للعالمين.

***

حتى إذا قيض الله «هولاكو» لإنهاء ذلك العهد الموبوء، تلاقفها «آل عثمان» وجددوا تلك الحياة الفرعونية، وضخموها بمقدار ما كانت تبدع عقولهم، ويوفر التطور العالمي، وكرروها جريمة شعواء لا تؤمن بالحدود، ولا تقيم الحدود إلا على أعدائها الأبرياء، ونكسوا الموازين الإسلامية والانسانية، ونسخوا سنن الفكر، ومسخوا قواعد الفلسفة، ونسفوا شريعة الاخلاق، وأرخصوا القيم المثالية وشرائع الحق. فكانت كسروانية فردية، تتبنى واجهة من اسم الإسلام، لا لشيء إلا لتبرير كل ما تقترفه من قمع وارهاب.

والأمة المسلمة، تستطيع أن تشهر الإسلام لضرب الحكم الكافر، ولا تقوى أبدا على شهر الإسلام في وجه الحكم الذي يطبق الإسلام على الشعب للتوفير على الحكومة، وانما تتخاذل، وتتوتر، حتى يتمكن منها الحكم المنحرف، ويطفىء فيها حنين الثورة. فمن هو ذلك المسلم الذي يحارب الحكومة الإسلامية وأين هي تلك اليد التي تتطاول على خليفة المسلمين؟ ومتى يوجد الرأي الإسلامي الذي يؤكد الثورة على الحكم الإسلامي، ما دامت للحكومة اجهزة دعاية مشعوذة، وكان في الأمة السذج والأغرار!!

وبقيت الحكومة تتاجر باسم الإسلام، وظلت الأمة تدفع كلها ضريبة انحراف القادة النفعيين.

وفرضت السلطة على الأمة، أن ترحب بالظلم، وترزح تحت الكابوس بلا أنين، وأن تسلم الجفون للاحلام مئات السنين. وانتفضت على الظلام الرابض الثقيل ـ مرة ومرات ـ ونفضت الرقاد من الجفون، ـ جيلا فجيلا ـ فوجدت الظلام مطبقا راسخا، تتفيأ أكنافه جحافل الجلادين بيقظة مرهفة. ورأت الرواعد والبروق، تصعق كل من يتمرد على السبات، وهفوات السياط وضحكات السيوف تشل العرق النابض، الذي لا يطيق الرقاد. وابصرت الكابوس الجاثم على صدرها، والقيود التي تشدها إلى الارض وثيقا.. فاستسلمت للواقع المرير الذي لا يغني التذمر منه، وفضلت أن تطبق الجفون على الاحلام الراقصة، على أن تكتحل بالاشباح المرعبة، وتهدر الضحايا بلا نتاج منها سوى المزيد.

والثورة تنبع عن الجنون، إن لم يصممها فكر يضمن قبلها النجاح، والحركات الطائشة لا تكسب إلا لعنة الشعوب ونقمة الحكومات.

وبقيت الأمة في رقادها المفروض، تقتات القيود، وتمض الأنين، ثم تفرش الأرض بالجباه الحامية، تملقا لجلال أحذية الجلادين، التي تعالت أن تلمس إلا جباه الخاشعين، ولو كان الخشوع تكلفا كذوبا، يفرضه النير والكابوس، على جبهات الأحرار الثائرين، فما ضر الذي يمشي على الرؤوس مرحاً، ليعلو ويفسد في الأرض، أن تهدر فيها جهنم أو تبتسم الجنان، ما دام لا يرتفع إليه منها سوى التضرع والابتهال...

وبقيت الأمة تسبغ الموت والصمت، على سعير صخّاب يجيش بالحمم ويكظم الأهوال الغضاب، وتكبح عز ما ينبض في الصدور من مشاعر وعواطف، حيث لم تمط تأهبا للانتصاب، إلا وصفعها الكابوس، وتلوّت عليها الأصفاد قبل أن تلفت الجلادين...

وبقيت الأمة مربقة بالأرض، حتى مات ثوارها ولم يخلفوا إلا الخانعين، وحتى توتر كل ما في قلبها من طموح، وما في تفكيرها من ابداع، واستحالت إلى جثة لحن ممدد، ليس له روح ولا ظل ولا أعصاب...

في ذات الوقت الذي كان العالم يواصل زحفه المرهق البطيء، في المتاهات والمنعرجات، حتى قطع اشواطاً من الحركة الصناعية، التي كان في وسع الأمة أن تطويها بقفزة من قفزاتها الرائعة التي تعودتها، لو توفرت لها الحريات الكافية، التي توفرت للعالم طوال أربعة قرون، ولكنها كانت حطاما بشريا يعلوه ركام من الاغلال والقيود فيما كان العالم حرا منطلقا، ينقل خطاه بتؤدة وفتور...

ففاز بمكاسب وإنجازات، أغرته ـ فيما بعد ـ بغزو العالم

الإسلامي... فكان من الطبيعي المحتوم، أن يتحقق الانتصار الحربي الساحق ـ في أقل من محاولة ـ للعالم الغربي المرتطم في الأسلحة الحديثة، على العالم الإسلامي الأعزل، الذي لم يتجند إلا بالاسلحة الرمزية، التي لم تصلح ـ ذلك اليوم ـ إلا لتزيين الصدور والقبعات، وزخرفة المتاحف الأثرية، تخليدا لذكريات اسلاف البشرية لا أن تُشهر على المدافع والصواريخ، وتخوض معامع اللهيب لمقارعة القنابل والألغام.

واستيقظت الأمة من غفوتها المفروضة الطويلة، بانكشاف (الحكم العثماني) عنها، لتشهد في اليقظة عرضا حافلا، لبقايا الأحلام المرعبة التي تعودتها في العهد السابق. ففزت مذعورة بزئير أسراب الطائرات المقاتلة، التي تعصف بالمدينة الواسعة، فتهطل عليها ديمة وطفاء من القنابل، التي تذرها جحيما يسعر فيها اللهيب، ليعرج أميالا في الفضاء، أو تبحر السفن الحربية، محملة بقطعات من الجيش، شاخصة نحو العدو، لتنسف على الضفاف المدافع الثقيلة، بالسيوف الهندية المصقولة والأناشيد الساعرة فتتفجر في مجاريها الالغام، لتتركها مشاعل مرسلة على زجاجة الماء.

فاستيقظت الأمة من غفوتها المفروضة الطويلة، بنسف الكابوس الجاثم على صدرها الواهي العريض، وفصم الأغلال المتشابكة الثقيلة. ووقفت الأمة التي طالما فرض عليها الرقاد، على أقدام متعبة متهالكة، لأول مرة تنظر وتفكر وتقول كلمتها الرائدة. وسرعان ما اجفلت مذعورة متلفتة، تبحث عن ملجأ يحميها ولو في أعماق جهنم، لأنها وجدت نفسها في حومة اللهيب، وقد طوقها (الحلفاء) بتلك الأسلحة المبيدة،

التي تنجز حملات التصفية الجماعية، بأسرع من غمزة عين، في الوقت الذي كانت الأمة عزلاء شديدة الإفلاس، حتى من مؤهلات الحياة الخاصة.. فكان عليها أن تتولى تقرير مصيرها، بعد ما تبخر ذلك الحكم، الذي كان يفرض عليها المصير المحتوم إن خيراً أو شراً. وكان لها أحد اثنين: إما أن تعلن الاستسلام الكامل المطلق، للغزاة الفاتحين، وترضى بالاستعمار كله.. وإما أن تتعبأ للتمرد، وتقذف بالكلمة العزلاء ـ حيث لم تملك غيرها ـ لترد عليها وكفات من القنابل الفتاكة.. فرأت أن الكلمة المقذوفة، لا تعني مدلولا سياسيا، ما لم تعبر عن إرادة مجندة بالسلاح... فاختارت الاستسلام المطلق لارادة الاقدار، وأعلنت خضوعها السياسي الكامل، لقوات (الحلفاء) بصراحة مفاجئة...

وهذه الأحداث التي تعاقبت غبّ الحكم العثماني، كانت مفاجآت اربكت الجهات المراقبة، التي حملت بين جوانحها هيبة من الأمة المسلمة، بل العالم الذي تسلسلت في ذاكرته مواقفها، وقُدِّرَ لها ألف حساب وحساب.

وكانت بالفعل مفاجآت غير متوقعة، بالقياس إلى سطح التاريخ الإسلامي، ولكنها كانت نتائج طبيعية حتمية، لأحداث متسلسلة انجزت تعبئتها خلف الستار، أيام الحكم العثماني، فلم يوجد ـ بالقياس إليها ـ ما يدهش أو يثير...

ونجح الاستعمار المشترك في تنفيذ الجزء الأول من خطته تجاه الأمة، وهو القضاء على الإسلام، على صعيد السياسة الدولية، وكان هذا النجاحُ مقدراً، ومتوقعاً في ذهنية قادة الغرب، وطبيعيا في رأي بعض المفكرين، المسلمين، الذين تنبأوا به من قبل.

***

ولكن أغرب الظواهر البعيدة عن طبيعة الأمة وطبيعة الأحداث، كان الانقلاب العقيدي السريع الذي حدث في واقع الأمة، فلم تسقط حكومتها، حتى سارعت هي الأخرى، للتسلل من الإسلام، الذي ورثته وجربته، وعاشته ونعمت في ظله طويلا، واتجهت بكلها نحو حضارة الغرب، وآمنت بها ايمانا أعمى، بكل ما في طياتها من مبادىء وأفكار.

لقد أعلنت الأمة، استسلامها السياسي والفكري مرة واحدة، وكان من المتوقع اعلانها الاستسلامين معا، حتى تتخلص من حركات (الحلفاء) من داخلها للقضاء على الإسلام العقيدي في ذهنيتها. ولكن كان من المتوقع أيضا أن يكون إعلان استسلامها الفكري، سياسة مرحلية تحاول التخلص من أزمة وقتية، دون أن تعرب عن واقع فكري لا يمكن أن يتم إلا بعد محاولات فكرية، وطوال أجيال لأن القضاءعلى عقيدة دينية في واقع أمة، لا تنجز بالنجاح في العمليات العسكرية، التي لا تباشر الأفكار من قريب ولا بعيد، وإنما تختصر جهودها في السيطرة الحكومية على البلاد.غير أن الأمة كانت صادقة في إعلان استسلامها الفكري للغرب المستعمر، فإذا هي تسير في ركاب الاستعمار وتلتقط كلماته وحركاته بالتملق والتمجيد، للأسوة والتقليد، وتتشرب كل ما يصدر من أجهزته بجشع وانتباه، رغم أنها كانت موتورة بالاستعمار، وحق لها أن تكره كل شيء منه.

غير أنا لو درسنا المراحل الفكرية، والهواجس التي عاشتها الأمة، لا يساورنا مثل هذا الاستغراب، فـ:

١ـ إن الأمة ـ رغم تبخر مناعتها أيام الحكم العثماني ـ كانت مغرورة بقوتها وتفوقها، وترتل أناشيدها وذكريات آبائها، وهي تحسب أنها لا زالت تستطيع صياغة المعجزات.

فلما تحطمت حكومتها تحت القنابل والمدافع، التي لم تعهدها من قبل، أصيبت بدوار وارتباك، وعرفت أنها تواجه صفحة جديدة من البطولات، التي لا قبل بها، فاستخفها الارهاب الذي سحق أعصابها وغرورها، إلى الاعتراف بكل ما يصدر من جهتها.

٢ـ إن الأمة طفقت تشعر بالتضاؤل، تجاه الثقافات الغربية التي كانت غريبة ورائعة على حس الأمة. وبهرها بريق الحضارة التي كانت في باكورة التوهج والازدهار، وفي كل يوم كانت تنجزُ معجزا يعجز ويغري ويدهش. فيشتد ويعنف إعجاب وانبهار الأمة بها، إلى حيث تنقاد لكل شيء منها طوعا، وبلا قيد أو شرط.

٣ـ إن الأمة خرجت من تحت الكابوس العثماني، بنظرة ممسوخة عن الإسلام، فكانت تظن: أن الحكم العثماني، هو التجسيد العملي الحي لأقصى ما يهدف الإسلام إلى تحقيقه، وحيث كرهت الحكم العثماني وجربت عجزها عن العيش إلى جانب الحكومات الحية، كانت تحاول التخلص منه، وخوض تجربة المبادىء الأخرى، علّها تطيق الحياة المستقلة في ظلها، إلى جانب الحكومات الحية.

غير أن هذه العوامل الثلاثة، كانت مغلوطة تستحق التبخر والاندثار، وعاملا آخر، باشرت تغذيتها وتأكيدها، حتى نمت وازدوجت وتفاعلت، إلى حيث ساهمت في تحريف مجرى الحقبة الأخيرة من تاريخ الأمة، وهو:

٤ـ العمل الإيجابي الجريء، الذي قامت به القوات الفاتحة، لتركيز عملية الفصل بين الأمة ودينها العتيد، فقد استخدم الغزاة الآثمون جميع

الطرق والوسائل، والطاقات الخاضعة لهم، لتنفيذ مؤامرات هائلة، سافرة تارة ومستترة أحيانا، من أجل القضاء على وعي الإسلام في ذهنية الأمة، فشنوا أوسع حملات الدس والتشويه على حقائق الإسلام، بما نثروه هنا وهناك، من مفاهيم وأفكار مناوئة للإسلام، وبما أشاعوه في كل فجٍ وصقع من الميوعة والتفسخ، اللذين لم ينكشفا إلا عن التحلل والانفلات، وبتقديس رجال ملحدين أو متوغلين في الانحراف باسم القادة المفكرين، والنيل من أبطال الإسلام الحنفاء الأبرار، وبتحقير الحقائق الإسلامية، وتفخيم الزيوف الحديثة.. وببقية القوى والاساليب التي امتدت إليها أيدي وعقول المستعمرين.

فبتلاقح تلك العوامل الثلاثة، وهذه العملية الدقيقة الحاسمة، نجح الاستعمار المشترك، في إنجاز الشطر الثاني، من مهمته الكبرى إزاء الإسلام، وهي القضاء على الإسلام في ذهنية الأمة، بعد ما أبرم القضاء عليه في مجال الحكم.

فخرجت الأمة من هذه التجربة القاسية، التي مرت بها، وهي تواصل سكرات الإعجاب والارتواء بنعيم الحضارة الغازية، صفرة من كيانها الحكومي والعقيدي، وهي تعدو ـ بأقدامٍ حافية ـ خلف مراكب المستعمرين علهم يسخون عليها بالثمالة[١] والفتات.

***

وفيما كانت الأرض الإسلامية، مصبا لروافد مستنقعات الغرب المستعمر، وفدت إليها تيارات من مستنقعات الشرق الكفور، لتنافس

---

(١) الثمالة: الرغوة.

المفاهيم التي سبقتها إلى الأرض الخصبة. واشتبك الصراع المرير بين هذين الاتجاهين، على حساب الأمة، وكيانها السياسي والفكري. وكانت معركة فيها الفناء،غير أن المستعمرين قبعوا في أوكارهم البعيدة يوجهون، والأمة هي التي نزلت إلى ساحة الملحمة، للتطوع بالضحايا والخسائر، من أبنائها وأحوالها وتاريخها حتى تجبي القوات المستعمرة نتائجها بعد الاكتمال والنضوج.

ولم تكن الأمة تدين بهذا الواقع الخاسر، لولا انخفاض درجة الوعي الإسلامي في عقليتها، وضحولة التجارب في ذاكرتها، وانتكاس القيادة في حياتها، بل كانت صخرة فولاذية تنحسر عنها الاتجاهات الاجنبية خاسئة صاغرة، دون أن تجد مواضع أقدامها، حتى تحاول استغلال الأمة، وقودا لمعركة خارجية، لا صلة لها بواقع الحياة الإسلامية، ولا تشترك الأمة في نتائجها فازت أو خسرت؟ ولكن الأمة المسحورة المتحللة، اندفعت بلا شعور وتقدير، خائبة من إمكاناتها، وحالمة بما أنجزه المستعمرون.

واستيقظت على دمدمة الزوابع الرهيبة، تقصف بها على حساب الآخرين، فنفضت بقايا السكر عن الجفون، ونفايا الإعجاب المزيف عن الأفكار، لتجد واقعها أرض معركة جبارة، تعتبر من أعقد معارك التاريخ، وتطلعت إلى الإسلام،لينتشلها من جاهليتها الثانية، كما انتشلها من جاهليتها الأولى، ويصوغ كيانها العتيد، ويجدد مجدها الغارب، ويكفر عما فرطت وخبطت مائة عام.

وتوامضت في الأفق الغامض، تباشير الأمل الكبير.. وتواترت في كل مكان، انتفاضات عنيفة مرهفة، هي آلام المخاض التي بمقدارها

يعظم النتاج... وطفقت ـ هنا وهناك ـ ارهاصات يافعة تتنبأ بنهضة إسلامية شاملة، تتنفس عن فجر جديد لسيادة المسلمين وتتفتح عن تاريخ جديد لسعادة الحياة.

فأما منذ اليوم، وقد أوشكت أن تونع الجهود التي ارخصتها الأمة، طوال أعوام مثقلات بظلمات العسف والتمزق والطغيان... فلنكن مفكرين، يعملون بالهام الفكر المدبر، والعقل المتربص، قبل أن نكون عاطفيين، يستخفنا العجب بتراث آبائنا ونتاج أنفسنا، فنتخبط بجهادهم المرير، وجهودنا الكثار.. كي لا نستهلك انتصاراتنا الهائلة، بتبذير مترف، فترة صاخبة، تعقبها قرون عجاف... وإنما لنشيد كياننا المتوقع، من القاعدة حتى القمة، ولا ننقض من القمة على القاعدة.. ولنعزز كل مرحلة من مراحل سيرنا الصاعد، بالتعبئة الفكرية المدروسة التي ترحب بالتصحيح والتطوير، قبل أن نعرضها للتعبئة الجماهيرية، التي ترفض الوقوف والتراجع، للتأكد من صحتها وصلاحيتها.

فيجب أن نركز مكاسبنا على قاعدة فكرية واقعية، تؤكد لها التوالد والاطراد، وتمدها بأطول الأعمار.

فالأمة المسلمة اليوم، تطوي فترة الانتقال من «الردة» الجماعية إلى الإسلام، وتصوغ تيارها الزاحف البناء، لتشييد كيانها المردوم، وهي ـ في هذه المرحلة الخطيرة الدقيقة ـ أحوج إلى الوعي والحذق والاتقان، من أمسها الذي كانت تنحدر فيه في «الردة» والهدم والانسحاب.

ولن تخسأ المحاولات البطولية الوفيرة، التي أرخصها أبناؤها البررة المجاهدون، لاستعادة سيادتها البائدة، وسوف تنبثق عن مستقبل أفضل ـ

مهما تطورت الظروف ـ ولن تشل ضغطها الدافع عقبات الرجعية والاستعمار.

غير أنا لو تركناها تبني نفسها ـ بارتجالية الحوادث، والحركات العاطفية ـ في السبخات المنخورة، فإنها تنهار بعد سنوات، لتترك خلفها تجربة فاشلة، تضاف إلى قائمة التجارب الفاشلة، لتبعث الجبن والارتباك في النفوس.

وإن هذبناها، وركزناها على قواعد الفكر والاجتماع، تعيش قرونا متطاولة، وقد يؤيدها التوفيق، للخلود، حتى ينعم في ظلها المسلمون بالسعادة والسيادة، ويمدوا يد النجدة إلى الشعوب المضطهدة، وينشروا ظلال الرحمة والخير، على المعذبين في الارض.

وأول دراسة تسبق الحركات الاصلاحية، هي التي تبحث عن خيط الانحراف، لتعاكسه بخط الاصلاح.

والثغرة التي نخرت في الواقع الإسلامي، حتى انتهت بسقوط الحكم الإسلامي في الصعيد الدولي وفي الصعيد العقيدي، هي الثغرة التي نشأت من تسلّل المتطفلين إلى مراكز القيادة الإسلامية، دون أن يختارهم الله، فلم تكن فيهم الامكانات التي تؤهلهم، للسير بالأمة سجحا نحو السيادة العالمية، فسقطوا وسقطت معهم، حتى انتهت إلى الدرك الذي تعيشه اليوم.

وهي اليوم، حيث تستشرف الكتل العامة لإنقاذها، وتتطلع إلى السبيل الذي يبلغها الهدف العظيم، تتطلع إليها الأطماع الجشعة من كل مكان، وبكل اسم وصبغة وأسلوب. وهي تئن تحت سنابك الاستعمار،

وتئن تحت ثقل الحركات المتطفلة عليها للمتاجرة بجروحها وآلامها، مستغيثة بالإسلام نفسه أن يهديها سواء السبيل... ولا بد للاسلام، أن يلبي هذا الأنين المتعب، المتفجر من الأعماق ويطلق كلمته قوية صريحة، لتستطيع أن تعلن ذاتها، وتشترك في المعركة، ثم تكتب النصر للأمة... ولا بد أن تكون تلك الكلمة، صادقة عميقة، إلى حيث تتقن صياغة المعجزات، وتتيح للأمة أن ترفعها، وتنضوي تحتها، وتؤلب حولها، فتجدد ما أسلفت في فجر تاريخها العظيم.

وما هذه الكلمة: «كلمة الإسلام» إلا محاولة متواضعة للاشتراك في تصميم تلك الـ«كلمة» وعرضها على الحياة..

وأنا أعلم: أن هذه الـ«الكلمة» ومليون كلمة معها، لا تطيق إنجاد الأمة، ولا أداء مدلول الإسلام في واقع الحياة، فاقحام الإسلام في واقع الحياة، رسالة تتطلب ألف عنصر وعنصر، وأحد هذه العناصر، بعث الوعي الإسلامي الصحيح، في معارض الفكر، ودحض الأفكار الدخيلة عليه، ولكنه العنصر الأول والأساس، فلنبدأ من هنا، عسى الله أن يوفق الأمة لتكميلها، ومتابعة العمل لترصيف البنيات الأخرى فوقها، حتى يبرز للوجود، ذلك الصرح الشامخ الوطيد: صرح الإسلام المجيد...

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

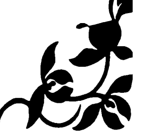
حسن الشيرازي

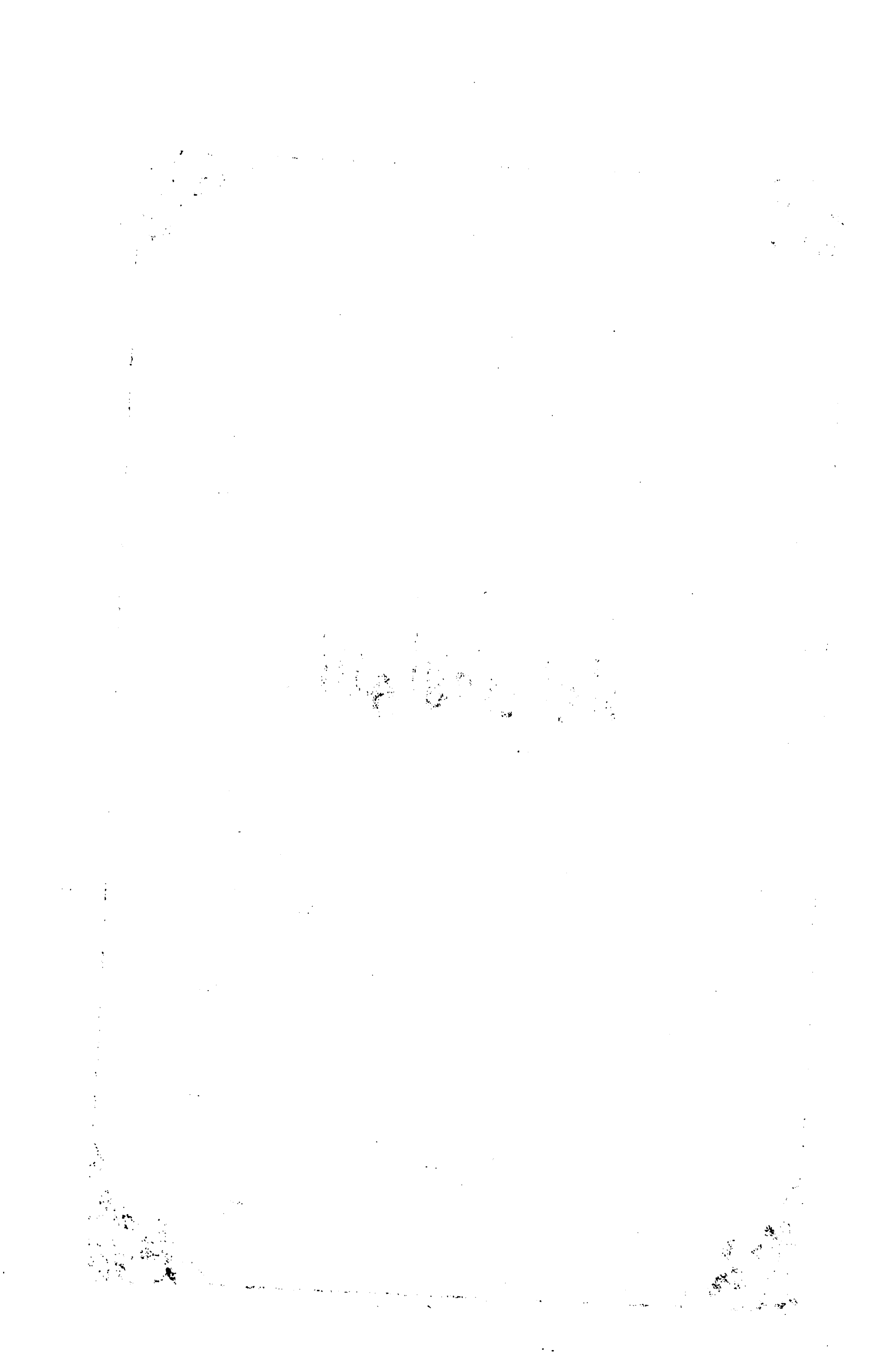
٢٠ـ ٩ـ١٣٨٢هـ

كربلاء المقدسة




النواقصُ أولاً



كانت الأمة المسلمة، هي القائدة والقاعدة، وعاشت أعلى القمم طويلاً، وكانت لها حكومة تكتنف ظل الشمس، ولا يمطر في غيرها السحاب، واستطاعت هذه الحكومة الواسعة، بارتكازها على تلك الأمة الواعية، أن تشيد كيانها الراسخ الشامخ، بطاقاتها الذاتية، دون حاجة إلى الاستعمار أو التعاون والاستجداء...

عاشت ألف عام، ثم انحرفت قياداتها وترهلت، في ادوار حاسمة دقيقة، كان عليها أن تبقى في ذروة الوعي والانتباه، لأنها فقدت جدارتها بالقيادة العالمية في أولى مراحلها ـ نتيجة لتضافر معاكسات ومضاعفات ـ ولكنها بقيت منطلقة بقوة الشعلة النبوية، التي ألهبها في قراره كل مسلم. ولم يكد يخبو عنفوان التجارب النبوية، حتى تقلصت صلاحياتها القيادية، بعفوية طبيعية، فاستطاعت قطاعات الأمم المتناثرة حول الحكومة، استغلال الانكماش الإسلامي، لتجميع أباديد طاقاتها، واسترداد فلولها المهزومة، للتطلع والانقضاض، على الأمة بأحقادها وأطماعها الرعناء.

وكان على الأمة أن تشعر بالتحشيدات والتأهبات التي تتفاعل

حولها، من أجل إعداد الجواب في الساعة الفاصلة.

غير أن القيادات المتطرفة السادرة، التي منيت بها الأمة، لم تفكر. ولم تسنح فرص العمل للمفكرين. فكانت الأمة متضائلة متراجعة، في الوقت الذي كانت تتناصر خيوط الظلام، وتتضافر وتتجمع القوى الموتورة والملحدة.

وكانت النتيجة الحتمية ـ التي تقولها الاقدار حين التحكيم بين معسكر متخاذل منهزم، ومعسكر متجمع مندفع ـ فأودت في المحاولة الأولى بالأمة إلى أبعد قرار، حتى لم تملك أن ينبض فيها عرق الدفاع، أو يترقرق في عينها حلم وفي قلبها رجاء.. ولم تفكر في النهوض، بل لم تطق أن تفكر في النهوض، بعد تلك الانتكاسة العنيفة، التي بضّعتها اشلاءً بائسة مرعوبة.

وتابعت الحياة أدوارها ومشاهدها المتسابقة.. وتراكضت الحوادث في مضمارها المجنون... وساطت الأمم سوط العذاب... وتلاحقت استعمارات وانتهازات... وتتابعت ضدها انفجارات وثورات اندلعت في غياهب السجون، ومن تحت النير والكابوس. فنجحت انتفاضات وفشلت حركات. وفي هذه التسلطات والتمردات، حدثت احتكاكات واصطدامات. فخضت الحياة، حتى عاد أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها... وتلك النجاحات المتواترة خطّت طريق الأمل للامة البائسة، فقدر لها أن تتسلق الحافات، وتظهر إلى جانب أذنابها السابقة ـ من الأمم المتخلفة المضطهدة ـ على المسرح الكبير، لتشارك في أداء بعض المحاولات التحررية.

وكان عليها قبل أن تمارس التجربة، أن تفكر في التجربة، وتصمم الخطة، ثم تنطلق في المحاولة، ففاتتها «عملية التفكير»، واندفعت بلا هدف ولا اتجاه، لأنها رأت الأمم المتحررة تندفع، ولم ترها تفكر، فحسبت أن عليها أن تندفع فحسب، وسيكون في انتظارها النجاح المحتوم.غير أن الأمم المتربصة بها فكرت لها ألف تفكير وصممت لها الف خطة، لتهضمها في طريق الصعود، كما هضمتها في طريق الانحدار.

فما انطلقت لكسب نجاحها، حتى وجدت نفسها على مفترق الطرق. وتلفتت لتلمس المعونة المادية والمعنوية، التي تضمن لها المسير والمصير، فارتسمت حولها في الأفق، إشارات كبيرة تقول:

ـ إلى أين؟..

ـ كيف المسير؟..

ـ ما هو الهدف؟..

ـ إلى متى الصراع؟..

ـ وما هي وسائل النهوض؟..

وانطبعت خلف كل استفهام حلول تقول:

ـ النازية!!

ـ الفاشية!!

ـ الشيوعية!!

ـ الاشتراكية!!

ـ البعثية!!

وانقسمت الأمة الغريرة على نفسها، بالاغراءات الدعائية المعسولة،

إلى قطاعات متشكلة متنافرة، انجرف كل منها مع تيار، أمداً طويلاً. حتى إذا بلغت النتيجة وجدت نفسها بعضاً مستهلكاً في كيان العدو الذي حاولت التحرر منه. فارتدت تجرر ذيول الندم الخاسر، على الاندفاع اللاشعوري مع الاغراء... وها هي تجد اليوم نفسها، محاطة بإشارات استفهام وحلول، تحاول فرض نفسها عليها بالاغراء وإلا فبالإرهاب. وهي تعرف أن عليها الاقلاع عن موقفها الحائر المرتبك، فهو ممر لا مقر، وفي نفس الوقت، تهاب الشعارات التي ترفع حولها الحلول، خشية أن تسير بها في نفس الطريق التي قادتها الحلول السابقة فيها. وهي كذلك بالفعل. فالاستعمار هو هو نفسه الذي أسقط الحكم الإسلامي، واستهلك أشلاء الأمة في أسواقه، حتى إذا تمردت عليه رفع الشعارات المعادية لنفسه، لاقتناص الأمة الثائرة ضده. وهو نفسه اليوم يقبع خلف شعارات جديدة، ليسيطر على الأمة من جديد، فهو يلون أزياءه، ولا يطور ذاته.

ودهاؤه يوفر عليه أن يبدل كل يوم شعاراته، ما دامت الأمة تخدع بتزييف الشعارات، ولا يسعفها تفكير مستقل، يقدر واقعها، ويستلهم علاجه منه ومن تجاربها الف عام، ومن إسلامها المجيد الذي رفعها فوق مستوى الأمم.

وفي هذه الفترة بالذات، ينتصب كل مسلم له وعي مستقل، لتقديم حلٍ يراه الحل الوحيد. رغم أن أكثر هؤلاء أصابع الاستعمار المباشر، من حيث يشعرون أو لا يشعرون، والباقون متشبعون بروح الاستعمار الفكري واتجاهاته وأساليبه. وهي وحدها تتفاعل في أدمغتهم.

فبمجرد أن يتفق نص واحد من النصوص الشرعية، مع اتجاه واحد

من تلك الاتجاهات، يحسبونه اتجاه الإسلام الصحيح، وإرادة الله التي لا يرضى بسواها أبداً.

فعلينا ـ بهذا الصدد ـ أن ندرس الحل الذي يحدده الإسلام، بموضوعية محايدة، لنستطيع التخلص إلى نتاج إيجابي يهدينا طريق النجاة ولا نستطيع دراسة «الحل الإسلامي» إلا إذا عرفنا عناصر النهضة الطبيعية، وأدركنا مدى نقصها في واقعنا المعاصر، حتى يمكن تحديد الواقع، ليمكن تحديد الحل بعده.

***

إن عناصر النهضة الطبيعية الجذرية، للامة ـ أية أمة كانت ـ تتلخص في:

١ـ وجود مبدأ شامل صحيح.

٢ـ وجود قيادة محدودة حكيمة، منتزعة من صميم ذلك المبدأ

٣ـ وعي الأمة لذلك المبدأ، وتلك القيادة.

٤ـ إيمانها المطلق بهما معاً.

٥ـ ثقتها بنفسها، كأمة تستجمع مؤهلات النهوض المستقل.

٦ـ تنفيذ الأمة لذلك المبدأ ـ في واقعها ـ بإيحاء تلك القيادة.

ونستطيع تقسيم هذه العناصر الستة، إلى قسمين:

القسم الأول: ما يتصل بطبيعة المبدأ، الذي تنطلق منه الأمة، ولا صلة له بواقع الأمة وجهودها وإرادتها، وهو عنصران:

١ـ وجود مبدأ شامل صحيح.

٢ـ وجود قيادة محدودة حكيمة، منتزعة من صميم ذلك المبدأ.

القسم الثاني: ما ينطلق من واقع الأمة، وارادتها وجهودها، وهو أربعة عناصر:

١ـ وعي الأمة لذلك المبدأ، وتلك القيادة.

٢ـ إيمانها المطلق بهما معاً.

٣ـ ثقتها بنفسها، كأمة، تستجمع مؤهلات النهوض المستقل.

٤ـ تنفيذ الأمة، لذلك المبدأ ـ في واقعها ـ بايحاء تلك القيادة.

فمتى توفرت هذه العناصر الستة في أمة، كانت امارة نهوضها المحتم القريب. ولئن فقدت هذه جميعها أو بعضها، انعكس عجزها في واقع الأمة، وفي مقدرتها على النهوض المستقل، وفي مقاومتها لمحاولات السيطرة والاستغلال.

تلك هي الحقيقة، التي يدلي بها الواقع العجوز، بعد تجارب الملايين، أفراداً وأعواماً، ويؤكدها التاريخ بمجموعة من البينات... وهذه سنة الحياة، التي لن تجد لها تبديلاً، ولن تجد لها تحويلاً.

***

وبعد إنجاز هذا الدور، باكتشاف عناصر النهضة الطبيعية، علينا أن ننتقل إلى الدور الثاني، باستعراض واقعنا المشوه المثلوم، بلا تعصب أو انحياز، لنتصفحه بتدبر وإمعان، إعداداً لعرضه على عناصر النهضة، فنلتمس الأخطاء لملافاتها، ونتحسس النواقص، لترميمها، قبل أن نباشر تشييد مستقبلنا، كي لا تكون قاعدتنا العامة، متهافتة منحرفة، تودي بكياننا المنشود في نشوة الميلاد.

١ـ لا أوضح من توفر «مبدأ شامل صحيح» لدى الأمة المسلمة، فالإسلام:

أ ـ يفرغ مسؤولية «المبدأ» ـ إلى جانب أدائه لرسالة «الدين» ـ لأنه يقرر فلسفة الحياة والانسان والمجتمع، ويسن القوانين الكافية لتنظيم الفرد والدولة والمجتمع. وليس «المبدأ» ـ في أوسع مفاهيمه ـ إلا ما يقرر فلسفة الحياة والانسان والمجتمع، ويسن القوانين الكافية، لتنظيم الفرد والدولة والمجتمع[١].

ب ـ «شامل» يسع الإنسان كله، عقله وجسمه وروحه، ويحكم جميع علاقاته، واتصالاته وإرادته، ويشمل حتى ساعات الفراغ، ونبضات الضمير، ويفصل بين الهواجس والأهواء، ويحدد موقف الفرد والدولة والمجتمع، من كل حقيقة وتصور.

ج ـ «صحيح» تصدى للنقاش الفكري، وللتجربة العملية، وصارع الأعداء المبدئيين، والسياسيين، ووفق لتنظيم قطعات كبيرة من البشر مدى ١٤ قرناً، وعاش الأزمات العصيبة والحروب، فما انتكس ولا استكان، ولا تكشف عن عجز أو خطأ...

وليست الأخطاء التي أحصاها عليه منابذوه المرجفون، إلا تلفيقات مزورة، تكذب نفسها قبل أن تنكرها الحقيقة. وقد تسكعها المتآمرون على الإسلام، لا إخلاصاً للحق والواقع، وإنما ليتخذوا منها واجهة يتسترون بها، لتبرير أحقادهم وأطماعهم الرعناء، التي تتبخر في النور، ولا تعشعش إلا في الظلام.

---

(١) وليس المبدأ ـ في أوسع مفاهيمه ـ إلا ما يقرر فلسفة الحياة، ويسن القوانين الكافية، لتنظيم الفرد والدولة والمجتمع.

فالإسلام «مبدأ شامل صحيح»، يستطيع المسلم، أن يواجه به الدنيا، بشجاعة وثقة ويقين. وهو الكلمة الأخيرة في مفكرة السماء وذاكرة الحياة، والرأي الأخير في معجم الكون وقاموس الانسان.

***

٢ـ لا بد من الاعتراف بتوفر «قيادة محدودة حكيمة، منتزعة من صميم ذلك المبدأ» في الإسلام، وهي قيادة النبي والائمة عليهم السلام، ثم العلماء المراجع فصلاحيات هؤلاء:

أـ «قيادة» لأن القيادة، هي السلطة المسيطرة على جماعة من الناس ـ قَلّتْ أو كثرت ـ لتنظيم شؤونها المشتركة بمختلف الأساليب والطاقات، التي تنتهي بالسلاح بوحي من مبدأ معين. وسلطة النبي والأئمة والعلماء، سلطة مسيطرة على الأمة، وعاملة لتنظيم شؤونها المشتركة، بمختلف الأساليب والطاقات حتى السلاح، بوحي من الإسلام، فهي «قيادة» بمفهومها العام.

ب ـ «محدودة» ليس لكل انسان محاولة اكتسابها، بل هي في عهود النبي والأئمة عليهم السلام، خاصة بهم، وليس لأحد، مهما بلغ، انتزاعها عنهم، ولا مشاركتهم فيها. وبعد الأئمة تنحصر في أفراد توفرت فيهم مؤهلات معينة، ليس لأي انسان الاستبداد بها لمجرد السيطرة الثورية، بل لابد أن يتدرج في مؤهلات خاصة، حتى يستوفيها، فيبلغ مستوى القيادة، بشروط خاصة... وإذا اشتُرطت «الأعلمية» في «المرجع» تكون محدودية القيادة بعد عصور المعصومين، كمحدوديتها في عصورهم، حيث تختص كلّ زمان بإنسان لا تكون لغيره محاولة انتزاعها منه من دون الرأي والاختيار، كما تقول الآية الكريمة ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ

﴿أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

ج ـ «حكيمة» لأمور:

أولاً ـ استنادها إلى «المؤهلات» دون النسب، والانتخاب، والثورة، وقوة الشخصية الحربية، وبقية طرق اكتساب القيادة الزمنية على فئة أو فئات من تلك الطرق غير المشروعة في شريعة الحق والأخلاق، التي يعيشها عالم اليوم، في ضمن ما يعيش من الشذوذ والارتباك.

ثانياً ـ كونها أحذق قيادة يمكن أن تتولى شؤون المسلمين، فلا يوجد إنسان أجدر بالقيادة، ممن يعيّنه الإسلام، ما دام الإسلام أحذق نظام جاء من عند الله تعالى.

ثالثاً ـ إخلاصها العميق، وتورعها الصادق، وحيطتها الدقيقة البالغة في شؤون المسلمين، لاشتراط «العصمة» أو «العدالة المطلقة» فيها.

رابعاً ـ كمالها المثالي البالغ، واستجماع المؤهلات، والمواهب المشترطة في شخص القائد المحنك، التي تتجسد في شرائط «النبوة» و«الامامة» و «المرجعية».

وهذه احتياطات عظيمة تمتاز بها القيادة الإسلامية، حتى لا يمكن أن توجد قيادة أخرى، أقوى وأحذق وأحكم من هذه القيادة.

د ـ «منتزعة من صميم ذلك المبدأ» ـ وهو الإسلام ـ فإن طبيعة الإسلام هي الطاعة والايمان، لأنه دين نزل من السماء بلا إرادة من الإنسان، بل تلبية للمصلحة العليا. كما أن واضع هذا الدين خلق الإنسان بلا إرادة منه، وإنما لمصلحته العليا. فالإسلام ليس نتاج رأي الانسان، بل جاء لتحديد رأي الانسان. وجدير بمثل هذا الدين، أن تكون قيادته ـ

أيضاً ـ معينة من قبل السماء، لا منتخبة من عند الناس. لأن الله الذي خلق الإنسان وأرسل نظامه، لا بد أن يعين قادته، الذين ينفذون دينه في خلقه كما يشاء، لا أن يترك قيادة خلقه لمن يختارونه أو ترشحه الظروف كيفما كانوا وشاءت.

وعلى هذا الضوء، نجد أن القيادة الكونية، بطبيعتها الأولية، مختصة بالله، والانسان الذي هو جزء من المجموعة الكونية، لا يتفرد دونها بقيادة، خارج القيادة الكونية، فقيادته مختصرة في الله وحده.

ونستنتج من الأحاديث الكثيرة، التي تحدد حقوق العباد بعضهم على بعض، وحقوقهم مع أنفسهم: ان رأي الإسلام يؤكد هذه الحقيقة الطبيعية، كالحديث المأثور «الناس مسلطون على أنفسهم واموالهم»، وقول الامام امير المؤمنين عليه السلام: «لا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حراً»، وبقية الأدلة التي تؤكد حرمة الغصب والتسخير، فليس لأحد حق السيطرة على أحد، لأنهم جميعاً متساوون في الحقوق، خلقوا كأسنان المشط، من أب واحد، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالرتب المعنوية، الناتجة عن التقوى. ولكن الناس جميعاً، حيث كانوا، عباد الله الذين خلقهم، ليعرفوه ويعبدوه، بمدلول الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. كان لله تعالى وحده، التصرف في العباد، وفرض ارادته الحكيمة عليهم، لأنه الذي خلقهم ورزقهم من الطيبات، وهو يحييهم ويميتهم، ويعيدهم ويحاسبهم، ثم يثيبهم أو يعاقبهم على ما فعلوا في الحياة الدنيا... فله القيادة المطلقة بحق... ولكنه خول هذه الصلاحية القيادية للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ليكون قائداً بشرياً في الناس، حتى يتوفر لهم التفاعل معه والاطمئنان إليه، فصرح القرآن الحكيم قائلاً: ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ

﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ . . ثم أكد: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾. . . ثم توارثت هذه القيادة المحدودة، في الأئمة الطاهرين، الذين قاموا بخلافة الله والرسول في الأرض، فأردف القرآن قائلاً: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾. وتواترت تصريحات الرسول بقيادة الأئمة ـ من بعده ـ بأسمائهم وخصوصاتهم، كما في خطابه الكبير يوم الغدير، وتتابعت نصوص السابق من الأئمة على اللاحق منهم.

وبعدما توارى المعصومون عليهم السلام، عن التفاعل المباشر مع الناس، استنابوا عنهم في قيادة الأمة، العلماء الجامعين لشرائط «المرجعية» وصدرت عنهم التصريحات المتواترة ـ معنى ـ لتثبيت هذه القيادة النيابية، من نوع الأحاديث القائلة، بأن «مجاري الأمور بيد العلماء بالله، الامناء على دينه»، وإن «. . . العلماء خلفاء النبي صلى الله عليه وآله»، وإن «.. العلماء حكام على الملوك والملوك حكام على الناس»، والتوقيع الصادر من الامام الحجة عليه السلام: «وأما الحوادث الواقعة، فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله عليهم»، وتأكيد الامام الصادق عليه السلام قائلاً: «. . . ولكن ينظرون إلى رجل منكم، ممن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكماً، فاني قد جعلته عليكم حاكماً، فاذا حكم بحكمنا، فلم يقبل منه، فانما بحكم الله استخف، وعلينا رد، والراد علينا، كالراد على الله، والرد علينا على حد الشرك بالله. . .»

فالنبي والأئمة عليهم السلام، والعلماء المراجع، انحدرت إليهم الصلاحية القيادية، بارادة خاصة ومباشرة من الله تعالى، فحقت لهم القيادة البشرية، وخرجوا عن العمومات التي تنص على حرمة سيطرة انسان على

انسان ـ بغير الصور المشروعة، كالايجار ـ فاختصت بهم القيادة البشرية، وحرمت على غيرهم ممارسة القيادة، لشمول التصريحات، التي تحذر من تطاول أي إنسان، لفرض سيطرته على آخر، في كبيرة أو صغيرة، وتقرر لمن يعمل ذلك حساباً عسيراً وعقاباً أليماً.

ومن الواضح: أن هذه القيادة، طبيعية منبثقة من فلسفة الحياة، ومنحدرة من خالق الكون والانسان، الذي هو أجدر بكل شيء، وأحق وأعلم بكل شؤون الحياة والانسان.. كما إنها منتزعة من صميم الإسلام، والواقع الفكري والذاتي للأمة، كما إنها دينية صميمة، يكون رباطها الأوسع والأقوى، دين فكري، يمثل إرادة السماء.. وذلك للانسجام الكامل الدقيق، بين حقيقة القيادة، وواقع الأمة والإسلام، وأهدافهما واتجاههما وأساليبهما، الذي يتجسد أروع ما يكون في «النبوة» ثم في «الامامة» ثم في «الاجتهاد المطلق» أو «الأعلمية» في الفقه الإسلامي، المنتزع من صميم أعماق الواقع والأمة.

وقد برهنت هذه القيادة الحكيمة، على كفاءاتها وجداراتها بحفاظها على مجموع أبعاد الإسلام كاملة غير منقوصة ألفاً وأربعمائة عام، وتدعيمها للكيان الإسلامي عبر الأزمات والأهوال، رغم انحراف قياداتها السياسية في أكثر الأحيان، وانهيال المعاول الهدامة عليها من كل مكان.

كما أثبتت هذه القيادة المتمثلة ـ أخيراً ـ في العلماء الجامعين لشرائط «المرجعية» طوال القرون الأخيرة من عمر حكومة الإسلام، وبعد انهيار الحكم الإسلامي حتى اليوم، على أنها أقوى قيادة على تحمل أعباء القيادة المدنية والفكرية، وتوجيه الأمة وجهتها المثلى، والارتفاع

بها إلى مستوى المسؤولية العالمية، إلى مركزها الوسط، بين أمم الأرض ـ جميعاً ـ كما شاء الله تعالى.

***

ومن توفيق الأمة:

أـ إن «مبدأها» ـ المتمثل في الإسلام ـ بقي على الدهر، محصناً من التلاعب والتحريف، رغم تظافر البواعث على حرف واقعه الأصيل، فلم تتخبط فيه الزيوف التي منيت بها الأديان السابقة، وإنما ظل في حرز منيع من إرادة الله الواقية، التي تحدث عنها القرآن قائلاً: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

ب ـ إن «قيادتها» ـ المتجسدة في العلماء المراجع ـ لم تتخل عن حصانتها ورسالتها النادرتين ـ على عكس القيادات الدينية الأخرى، التي خلعت طابعها الأصيل، واتجاهاتها المقدسة ـ وإنما بقيت تريكة من بيت الرسالة، لتروي للأجيال حياة الرسول والأئمة الطاهرين عليهم السلام، وقصة الطهر البشري حينما ينبغ فيضرب الأمثال، ولتنصب من نفسها نماذج حية للقائد المسلم ـ في حياتها الاجتماعية ـ وللفرد المسلم ـ في حياتها الخاصة.

***

فالأمة المسلمة، لا تفقد في واقعها المعاصر، القسم الأول من عناصر النهضة، وهو القسم الذي يتصل بالمبدأ الذي تنطلق منه الأمة، الذي يتلخص في «وجود مبدأ شامل صحيح» و «وجود قيادة محدودة حكيمة، منتزعة من صميم ذلك المبدأ». وقد وفرهما الله تعالى على الأمة

بفضله. ولولا وجودهما، لم يكن في استطاعة الأمة توفيرهما، كما لا تملك بقية الأمم أن تظفر بمثلهما، في محاولاتها الكثار.

فلنتصفح حياة الأمة، لنتلمس مدى العجز في القسم الثاني من عناصر النهضة، وهو الذي ينقسم إلى الأربعة الأخيرة، التي تتصل بواقع الأمة وإرادتها.

***

العنصر الثالث من عناصر النهضة القاعدية للأمة، وهو:

٣ـ ومن البين، فقدان «وعي الأمة لذلك المبدأ، وتلك القيادة»، فإن الأمة لا تفهم «مبدأها» المتمثل في الإسلام فهماً إجماعياً، ولا تفهم «قيادتها»المتجسدة في العلماء، فهماً إجماعياً، فهي لا تفهم شيئاً من الإسلام والعلماء، أو تفهم الايحاءات الدخيلة، التي تعنى بإلغاء الإسلام والعلماء جميعاً.

وقد نتج هذا الانخفاض الفكري في واقع الأمة، على أثر تلاقح العوامل التالية:

أـ «ارتداد القيادة الإسلامية» نتيجة لتسلق أسر مفروضة على المسلمين، مراكز القيادة، وإزاحة الأكفاء الصالحين عن دفة الحكم.

فبعد أن استبد بتلك القيادة الواسعة الخطيرة رجال متطفلون على الحركة الإسلامية، أوسعوا في المسلمين حركة التجميد والتضليل، التي كانت تهدف إلى:

أولاًـ مسخ التصور الإسلامي الكامل الصحيح، في الرأي العام الإسلامي، حتى يسنح لهم توفير مآربهم، وإشباع أطماعهم الجشعة،

التي تربعوا من أجلها على مقاعد القيادة.

ثانياً- ضرب القادة الاصليين، وابعادهم عن ذهنية الأمة، وواقع حياتها التي ما كانت تستغني عنهم، حتى ترتبك المقاييس وتتخبط القيم، فلا تعرف الأمة قادتها المعزولين، وأعداءها المتسلطين، فتحاول اقصاء المتحكمين وإطلاق أيدي المقيدين في مرافق الحكم.

وحيث كان المستبدون بالقيادة الإسلامية يقدرون واقعهم وواقع الإسلام، ومدى التباين بينهما، كان عليهم أن يعملوا لارفاق مستوى ذهنيته بمستوى واقعهم المتفسخ، حتى تعيش الأمة في ظلام لا ينبض فيه نور. فكان الانخفاض في وعي الأمة يتزايد، بمقدار تزايد «الارتداد» في واقع القيادة، حتى عاشت الأمة قرونها الأخيرة، في جمود قاتم ثقيل، لا يتنفس فيه إشعاع.

ب - «انحراف الحكم الإسلامي» عن مقاييسه التي صممها الإسلام.

فبعد ارتداد القيادة الإسلامية، عن اتجاهها الجماعي المستقيم - الذي يهدف إلى توزيع العدالة والسعادة على المجموع وتقدير الناس من أدنى الأفراد إلى شخص الخليفة، في ميزان الأخوة والمساواة العادلة - إلى اتجاه فردي يكرس نشاطه لغمط العدالة، واحتكار السعادة على الحكام وبطانتهم فحسب، وتسخير مجموع الشعوب في القاعة الواسعة، لتملق شهوات أفراد يتربعون على القمة...

بعد هذا الارتداد القيادي الذريع، كان من الطبيعي أن تنحرف أبعاد الحكم الإسلامي كلها، عن اتجاهاتها الجماعية المستقيمة... لأن تصميم الإسلام، كان يوحي بأن تنطلق أبعاد الحكم وطاقاتها وإمكاناتها

جميعاً، من مركز القيادة، إلى جميع أفراد الأمة سواء، بينما كانت القيادة بعد «ردتها» تفرض على ابعاد الشعوب، أن تنطلق من جميع الأفراد سواء، لتتضافر على القيادة.

واستفحل الانحراف في الأمة، بامعان القيادة في الترهل والفردية، حتى عاش الحكم الإسلامي أكثر حياته، أشبه ـ في صميمه ـ ببقية الأحكام الفردية الجائرة، التي عاصرته في مختلف قطعات العالم، وإن اختلف عنها في أساليبه وشعاراته العامة بعض الاختلاف.

ورغم أن «الفقه الإسلامي» المعترف به ـ ذلك اليوم ـ كان يصور «الحكم الإسلامي» و «القيادة الإسلامية» على غير الصيغة التي عاشتها الأمة، فقد تأثر الرأي العام الإسلامي، بتلك التجربة الشائكة، التي قاستها الأمة طوال قرون، والتقطت منها آراءها وانطباعاتها، ولم يستطع الفقه الإسلامي، فرض نفسه على ذهنية الأمة، وانكار أخطائها حوله، لأن القيادة الحاكمة ـ باسم الإسلام ـ كانت تنكر كل تصور مخالف لها... ولأنها أبعدت الرأي العام عن دراسة الإسلام، دراسة موضوعية حرة.. ولأن الناس يتفاعلون مع الواقع الراهن ـ الصحيح أو المغلوط ـ الذي يعيشونه، أكثر من تفاعلهم مع الأفكار والمثل، مهما كانت واقعية صائبة... فنتيجة لهذه العوامل، كان انطباع الأمة عن «الحكم الإسلامي» و «القيادة الإسلامية»، انطباعاً منكراً، يشير إلى الحذر، ومحاولة التخلص في أول فرصة متاحة.. ووجدت الأمة فرصتها المأمولة، بانكشاف «الحكم العثماني» على أيدي «الحلفاء» فانفلتت منه بنقمة وكراهية عنيفتين، ترفض كل تفاهم حوله.

ج ـ «الاستعمار الفكري المسلح» الذي عقب «الحكم العثماني»

لتثبيت تلك التصورات الخاطئة، التي أوحي بها من قبل، والتأكيد عليها بكافة أجهزة النشر والدعاية والتوجيه، ثم تنميتها بصورة تذيب الأمة، وتؤمن مصالح المستعمرين.

فإن الغزاة «الحلفاء» ما إن نجحوا في القضاء على «كيان الإسلام الدولي» حتى وحدوا إمكاناتهم الدعائية، للقضاء على «كيان الإسلام العقائدي» لتكميل القضاء على واقع الإسلام كله، في جميع مجالاته السياسية الفكرية ـ ثأراً لآبائهم الصليبيين، الذين خسئت محاولاتهم الدموية، دون ردم الإسلام ـ فبدأوا بتنفيذ الخطط التي صممها قادة الحروب الصليبية، وورثوها من رؤوس المستعمرين والطامعين... وكانت نقطة الضعف، التي تسللوا منها إلى الأمة، لمسخ «الضمير الإسلامي» و «الرأي العام الإسلامي» هي سوء فهم الأمة «لمبدئها» القويم... فاستغلوا منه جواً ملائماً، لتربية تشويهاتهم ومغالطاتهم وتهمهم التي قذفوا بها الإسلام، واثارة الأفكار والمفاهيم التي تسفي جوهر الإسلام، وتنكر أصالته وصلاحيته الفعلية لمعالجة مشاكل الحياة.

وخرجت الأمة من «حملة التشويه الاستعمارية» بتلفيقات مزيفة تبعث على التقزز والاستنكار.

ونتيجة لهذه العوامل الثلاثة، فقدت الأمة وعيها «المبدئها» و «قيادتها»، بل كسبت وعياً معاكساً لهما.

***

٤ـ ومن البين خسارة الأمة «إيمانها المطلق بهما»:

فعلى اثر الفصام النكد، بين الأمة ومبدئها الكريم، توتر ايمانها به،

رغم أن إيمان الأمة بالإسلام، كان ـ يوما ما ـ أصلب من الدهر، وأقوى من الاستعمار، وفوق إيمانها بكافة الأفكار والآراء.غير أن المبدأ مهما بلغت صلاحياته ومؤهلاته، والايمان كلما ارتفعت به القوة والمناعة، لا يطيقان التلاقح مع الواقع، ما لم يستند إلى قاعدة مركزة من الوعي الجماهيري الصحيح، فإذا انهدرت القاعدة، بقي الإيمان، أرهف من كيان الأشعة في الأصيل... وهربت قطاعات من الأمة بإيمانها المهدد عن الاجتماع، ولكن تفتت الوعي الذي نخر في قواعده، كان أثيراً في تمييع هذا الإيمان، وخسارته للكثير من طاقاته الحرارية، وإيجابياته الزاحفة المتربصة... تختبىء في الزوايا والمنعطفات، قلوب تكنز الربيع بكل أشواقه وتطلعاته... وكانت تنبثق، بين الحين والآخر، معجزة الايمان، لتؤكد وجوده، وتعلن ذاتها عبر الحدود وعبر الظلام، ولكنها كانت خطفات تومض كالشهاب، وكالشهاب تمرق في الأفق، ثم تغوص في أطباق الظلام الهابط من مراصد الاستعمار، لتترك شظاياها مغروزة في عيون المستعمرين.

غير أن قوى الاستعمار، في عنفوان مدها الطاغي، عملت على تلقيح الجو ضد عناصر الخير، فما كانت تلوح في الافق ايماءات مستميتة، إلا ويقضى عليها، قبل أن تنظم من نفسها قيادة لتغذية الأمة، وإعادة الجماهير إلى مسيرتها الصاعدة في الركب الإسلامي... والامم لا تستجيب للتلويحات المستحبة، وإنما تلبي أقوى السلطات القاهرة. وقديماً كان «الناس على دين ملوكهم» لا على دين مفكريهم. وفي تلك الاحيان، كانت السلطات الزمنية، متجمعة في قبضات المستعمرين، الذين كانوا يوجهون كافة جهودهم الكفاحية لحرب الإسلام،

ويستخدمون جميع أجهزة الدعاية والنشر، لاذاعة مبادئهم وقياداتهم، وفرضها على الأمة بكل وسائل الإغراء والإرهاب.

وكان الإنسان المسلم، يتطلع إلى آفاق جديدة، ليستنشق فيها الحريات، التي لم يتنسمها في «العهود الإسلامية الغابرة»، ويتلهف إلى عقائد توفر عليه كل ما حرم منه في غضون «الحكم الإسلامي»... ففتح المستعمرون عليه أجواء صاخبة، بالمبادىء والأفكار الرجعية والعميلة، التي تنتهي باستهلاك الأمة في الاستعمار. لكن الإنسان المسلم، الذي احتضنها هروباً من الإسلام، ما فتىء أن وجد نفسه مطوقاً بحلقة من شبكة واسعة، تستقي جذورها من أعماق بعيدة، مغرقة في الإلتواء والانحراف، بحيث لا يتاح له التخلص من حلقة باهظة، إلا لتلف رقبته حلقة شائكة أخرى، ولا يحطم سلسلة، إلا وتلتوي عليه سلاسل متوالية لا تنتهي ولا تنفصم... وظل سادراً يدور حول نفسه في حلقات مفرغة متسلسلة، دون أن يجد فيها طريق الإصلاح أو النجاة.

وفي لهفة التطلع الباحث، تفتحت الأمة على وهج «الحضارة الحديثة» وهي تمضي فترة انتقامية مريعة، انعكست عليها الأخطاء والانحرافات السابقة، لتتجمع وتتلاقح مع تمزقات اليوم، فنتجت المأساة الرهيبة، التي كهربت الفترة المظلمة التي واجهت الأمة المنهارة المتلهفة فيها، بريق الحضارة الحديثة، وما يتلوها من كوارث وأزمات.

والتفاعلات النفسية الانهزامية، التي كانت تتناقض في أعماق الأمة، فرضت عليها أن تتبنى «المواقف الذيلية» و «السياسة السلبية الانفعالية» من تطورات الحياة، وأحداثها الكبرى.. فلم تعد هي التي

تتحكم في الأحداث، وتوجه الحياة، بل كانت هي الأخرى، التي تستنجد بالخنوع والنكوص من كل مغامرة، ودون معالجة المشاكل، ومواجهة التحديات.

وإذا حاولنا كشف المعركة على حقيقتها، وجدنا في جانب منها، حضارة مسلحة فاتحة ذات رغبة عارمة في التسلط الوحشي الأناني، وإلى الجانب الآخر، أمة عزلاء، في أبشع حالات التوتر والاستسلام، ذات رغبة جشعة في الميوعة والتمتع... فكان من الطبيعي أن ينعكس الهلع الانهزامي على طابع الأمة، في صورة تخلف اقتصادي واجتماعي متزايد.

وفي الاحتكاكة الأولى، استيقظت الأمة، إلى مشكلاتها التي كانت تتجاهلها، وتهرب من مواجهتها والتفكير فيها... وتواترت عليها مشكلات أخرى، من جراء الاستعمار الجشع... وتتابعت أزمات ومضاعفات، تمخضت عن «المشكلة الكبرى»: مشكلة الساعة، التي لفت الأمة وحيرت القادة، بعقدها والتواءاتها، التي لا تفرج إلا عن سدود وأشواك، خلفها سدود وأشواك.

فقد نشطت الحضارة الغالبة، في نشوة الانتصار المسلح، لتفرض حلولها على الأمة، وتخنق فيها حس الحياة، وتكبح كل نأمة تدعو إلى التفتح والانطلاق... وكانت بقايا الإسلام الراسبة في أعماقها، تهيب بها: أن ترفض تلك الحلول التي تخالفها في الصغيرة والكبيرة... ولكن... لم تكن للامة إرادة مستقلة ولا اتجاه حر. على أن الأمة فقدت وجودها الصحيح بعد انتصار «الحلفاء»، لأن القادة أبيدوا، والمفكرين سجنوا، والجماهير الهائجة لا تعرف شيئاً، وإنما هي تبحث عن الخبز، وتتبع من يقدم لها الخبز، وإن كان ملطخاً بدماء آبائها واخوانها، هي أبداً

تتألف من الرعاع، الذين يتبعون كل ناعق، ويميلون مع كل ريح.. ثم ماذا تصنع أمة عالمها الخارجي منهار، وإرادتها الداخلية متهافتة، وكيانها الذاتي محموم بالتناقضات؟.. وكيف ترفض هذه الحلول، وهي لا تجد سواها، ولا تحلم بغيرها؟... وهل تلتمس حلولاً فضلى في الإسلام؟.. والاسلام أصبح أمامها شبحاً غائماً، متلفعاً بالضباب، ومكبلاً بسياج شائك عنيف من التصوف الشاذ، الذي يظهره في الطقوس العبادية، والمثل العليا المغرقة في المثالية، التي لا تخرج إلى الحياة إلا في نماذج من الأنبياء والابدال، بينما المبدأ الذي يعيشه الناس، كزاد يشبع فراغاتهم، وسلاح يحميهم، وطاقة حية متفاعلة تنازل المبادىء وتطارد المشاكل، لا بد أن يكون فيه منهاج حياة واضح سهل شامل، بارز المعالم والخطوط والحدود، حتى يهضمه انصاره، وليستطيع توجيه ارادتهم إلى تسديد الهجوم والدفاع في مختلف أدوار الصراع العالمي، القائم على الصعيد الواقعي. والذي توسع حتى أصبح ميدانه، المدرسة، والبيت، والمقهى، والشارع، والسينما، والراديو، والتلفزيون، وكل مكان يجتمع فيه اثنان... ولم تتبين الأمة، مثل هذا المبدأ في الإسلام، وإنما تبنته في المبادىء الوافدة مع الاستعمار.

وهذه الانطباعات والتأثرات كانت تنعكس على تفكير الأمة وواقعه، في صورة حيرة مضنية، وشبهات متوالدة، في صلاحية الإسلام، لانقاذها من الدرك السحيق، الذي انحدرت إليه.. وقد كان هذا الطوفان الفكري الهائم، يتغذى بإيحاءات الاستعمار، التي كانت تؤكد في كل مناسبة وبلا مناسبة، على أن الإسلام هو المصدر الوحيد لتخلف الأمة، وانهيارها المتزايد.

ومن هنا انقسمت الأمة أثلاثاً:

أ ـ أقلية نادرة، بقيت في زحمة التيارات، محتفظة بالإسلام كله، ولكنها عاشت متفتتة متحاجزة، لا تتلاحم لتكوين قوة ضاربة.

ب ـ كثرة غامرة، بلغ بها التأزم النفسي، حد الإعلان، والتحلل المتجاهر من الإسلام، للاسترسال مع أقوى التيارات.

ج ـ فصيلة موزعة بين الواقع والمثال، فهي تؤمن بالإسلام إيماناً فكرياً مجرداً، وتركز حياتها الخارجية على المبادىء الأجنبية، لأنها كانت تثق بالإسلام كله، ولكن مقدرتها الفكرية، لم تسعفها بطاقة الكفاح، لتنفيذ إرادتها في مجالات الحياة، فأصبحت ترضخ لكل عامل متسلط.

***

وهكذا آمنت الأمة بمبادىء رجعية استعمارية فاشلة، وعنت لقيادات أجنبية عن طبيعتها وطبيعة الحياة... وانسلخت الأمة من الإيمان المطلق بمبدئها الرشيد، وقيادتها الحكيمة.. وإن خشيت ـ من الله أو من الناس ـ أن تعلن الغاء هذا الايمان الفارغ،لعلها من التشدقات الإستهلاكية غير أنها أصرت على إلغائه في واقع حياتها... فظهر في المسلمين، الرجل الذي يعيش في واقعه الديمقراطية، أو النازية، أو الشيوعية، ثم يقول: أنا مسلم، ليغالط نفسه، ويخدع الحقيقة والتاريخ. ولكن المغالطات إن انطلت على الناس، فانها لا تنطلي على الواقع، الذي ينتظر منه نتاج.

وبعزلة الأمة، عن «مبدئها » و «قيادتها» و «إيمانها» انحلت فيها «الشخصية المسلمة»... لأن الإنسان الحي في هذه الحياة، يعيش بين الله

والكون والمجتمع، والإنسان المسلم، الذي يمثل الإنسان الكامل، هو الذي يعيش حياة واعية مترابطة بين هذه الثلاثة، ويستمد من كل واحد منها قوة وسعادة، تعينانه على تأدية الحياة، فيوجه «عقله» للتعامل مع الله تعالى، ويكرس «روحه» للتفاعل مع الكون ويخلص «عاطفته» للتلاقح مع المجتمع.. ويستخدم جسمه، لتنفيذ إرادة العقل والروح والعاطفة.. فبتوجيه هذه العناصر الثلاثة، في اتجاهاتها، وفق رأي الإسلام ـ الذي هو أصوب الآراء ـ تتألف «الشخصية المسلمة»... فمن غير الممكن وجود الشخصية المسلمة، بإطلاق تلك العناصر حتى تأخذ صيغها المتفاعلة، كيفما اتفقت، لأنها مجموعة متداعمة، من عقل واع متفتح، وروح عميقة وضاءة، وعاطفة مشبوبة، موجهة بتوجيه الله تعالى...

فكل إنسان اطمأنت في وجوده الخاص، هذه الطاقات الثلاث، يكون «فرداً مسلماً ـ بإطلاقه الواقعي ـ إذ يصبح إنساناً، نابعاً، متميزاً، يتصف بالغنى الذاتي، والخصب الداخلي، فيملك واقعه، ويستطيع أن يصوغه بارادته المستقلة، أو كيفما يوحي به الإسلام. ويصح أن تطلق عليه كلمة «الانسان» قبل إطلاق كلمة «المسلم»، بصدق وحرارة، فهو ليس أداةً طيعة، يستأثر بها واقع المحيط، وأي انسان قوي متسلط، يستدرجه في إرادته وتوجيهه، وإنما هو شخصية سامية مرهفة، يطيق الترفع عن واقعه وواقع الناس، لمراقبته والإرصاد له، كما شاء الله للإنسان المسلم: أن يكون «مهيمناً على نفسه» و«شاهداً على الناس».

وحتى إذا توفرت «الشخصية المسلمة» في ذات إنسان، فهو وإن استطاع تكوين هذه الشخصية في صميمه، إلا أنه لا يملك الاحتفاظ بها، والبقاء في مستوى تلك الشخصية النزيهة، رغم ما تستجد وتتلون أمامه

من مباهج ومغريات طالما يكون إنسانا يعيش في قرارته «البشر» قبل «الشخصية المسلمة». والبشر فريسة يتربص بها كل ما في الكون. ومن المعتاد أن ينطلق فرد إلى قمة، ثم ينحدر عنها إلى أبعد قرار.. فالفرد الذي شيّد في وجوده «الشخصية المسلمة» لا يكون أميناً عليها، ما لم يوجهه «مبدأ» شامل صحيح، و«قيادة» محدودة حكيمة، يعصمانه من الانهيار والانحراف..

ولذلك نجد الأمة المسلمة، ظلت راسخة في الموقف اللائق بها، ما كانت مؤمنة بـ(مبدئها) و(قيادتها). ثم لما تخاذل إيمانها، وفصلت واقعها عن (مبدئها) و (قيادتها) وانفرطت عنهما، تعرضت لانحلال بشع ذريع، تركها مضغة تلاك، وفصيلة تواترت عليها عوامل الهدم والتشويه، من أعدائها وأنصارها. ثم لم تنضو تحت (مبدأ) شامل صحيح، و(قيادة) محدودة حكيمة، بل أهملت ذاتها، متطوعة للقيادات الغازية، التي كانت تحرص على تناهبها واستهلاكها، فأصبحت اشلاءً موزعة، تباعد بينها تيارات متعاكسة. و رغم أن الكثيرين من أفرادها يحظون بـ(الشخصية المسلمة) نجدهم لا يستطيعون الانتشال بها من مهواها السحيق، وإنما يبقون أفراداً حتى يلفهم الموت، أو يفقدون (الشخصية المسلمة) التي اكتسبوها ـ بعد برهة ـ لأنهم لا يظفرون معها بالايمان بـ(مبدأ) شامل صحيح، و (قيادة) محدودة حكيمة.

وما لم تحصل الأمة (إيماناً مطلقاً بهما معاً) لا يكتب لها النهوض الجذري الراسخ، مهما تضخمت طاقاتها، وتواترت في أفرادها (الشخصية المسلمة).

***

٥ـ ثم كان من الطبيعي المحتوم: أن فقدت الأمة (ثقتها بنفسها، كأمة تستجمع مؤهلات النهوض المستقل).

لأن الأمة، بعدما تحطمت على أيدي (الحلفاء) وفقدت (مبدأها) و(قيادتها) و(ايمانها بهما)، أهدرت محاولات يائسة، لانكار تفتتها، وتمويه واقعها على الرأي العام، ولكن الانطلاءات المزيفة، لا تعيش إلا من بعيد، وتتبخر بالتجربة. ولم يكن للامة أن تعيش (في فرو الأسد) منعزلة عن العالم ـ كما كان لها قبل الحرب العالمية الأولى ـ لأن الآفاق المتوجة بالحروب، تعصف أول ما تعصف بالزيوف، ولأن الأمة ـ في تلك الفترة ـ كانت تعيش تحت كابوس الغزاة الفاتحين. فسرعان ما أذعنت بفشلها، وأعلنت واقعها المنكود بلا مداجاة... فكان من الطبيعي أن تفقد (ثقتها بنفسها، كأمة تستجمع مؤهلات النهوض المستقل)... ثم لم تستطع فيما بعد، إستعادة تلك الثقة لعوامل:

أـ لأن الثقة بالنفس، في مجال التعايش العالمي، لا تتكون لأمة ما لم يتوفر لها (مبدأ شامل صحيح) و(قيادة محدودة حكيمة...) و(إيمان مطلق بهما معاً). ولم تتوفر للأمة المسلمة، هذه العناصر، منذ الحرب العالمية الأولى حتى اليوم. والثقة التي لا تستند إلى قاعدة مؤلفة من هذه العناصر الثلاثة، ثقة كاذبة، قد تنفع مادة للتبجحات الاستهلاكية، ولكنها لا تفيد أداة للمعركة المصيرية، وقاعدة لبناء كيان قيادي.

ب ـ إن الثقة بالنفس، نظرة نابعة من صميم الواقع، وليست بضاعة تستورد، ولا حركة تقلد، فمتى وجدت أمة نفسها غنية في وجودها مع نفسها، ومع الأمم التي تعايشها، حصلت لها الثقة بالنفس وإن لم تشأها. وإن لم تجد أمة نفسها غنية في حياتها الخاصة، أو في حياتها المشتركة

مع الأمم المترابطة معها، فإنها لا تقدر على كسب الثقة بالنفس، مهما حاولت، وأرخصت في سبيلها التضحيات... خاصة والثقة بالنفس، نظرة تنبع من الأعماق وتعيش في الأعماق، فلا تقبل التزوير، لأن الأمة لا تستطيع أن تكذب مع نفسها، وان استطاعت أن تكذب مع الآخرين... والأمة المسلمة، التي تقبع على موائد المستعمرين، لتستجدي الزوائد والفتات، وتذوب تواضعاً وتخلقاً تجاه العملاء والدخلاء، وتقلد كل كلمة وحركة وإرادة تصدر من المتطفلين الاجانب، وتمثل عبادة الاستعمار بأسخى مظاهرها، لا يمكن أن تملك الثقة بالنفس، في معارك الصراع الجبار، الدائر بين الأمم الاستعمارية الحية.. وكيف يتاح لأمة تكوين الثقة بالنفس، وتشييد الإيمان بجدارتها للسيادة والاستقلال، وهي لا تملك ـ في واقعها ـ (مبدأ) ولا (قيادة) ولا (ايماناً بهما)، وإنما تعتقد بمبادىء المستعمرين، وقيادات المستعمرين، وجدارة المستعمرين، وتستعين في بناء حياتها الخاصة، باستيراد كل شيء من بلاد المستعمرين، وتهب ولاءها للاعداء الاجانب حتى الغلو، وتتنكر لنفسها حتى الاغراق.

ج ـ إن الحكومات الاستعمارية ـ التي عاشت أجيالا تحت سيادة الأمة المسلمة، وهي تقتات الحقد وتعض على النواجذ، ثم تعاونت لضربها، وشل ثقتها بنفسها ـ تضحي اليوم بكل غالٍ ونفيس، لإضعاف الأمة المسلمة، وتكذيب كل ما ينبض في عضلاتها من ثقة بالنفس، وتعقيم مواهبها ومؤهلاتها، وسرقة طاقاتها ومنابع ثرواتها، حتى لا تستجد لها ثقة بالنفس، ولا تنبع لها إرادة وكفاءة، فتستعيد سيادتها، وتسيطر على القيادة العالمية من جديد، فتعود الأمم المستعمرة ذيولاً

وامّعات، لا تستطيع امتصاص دماء الشعوب وثرواتها، وكسب سيادة العالم وولائه.

ونتيجة لتلاقح هذه العوامل، تكون (مأساة الثقة بالنفس) لدى الأمة المسلمة، مأساة مزمنة، بعيدة الجذور.

***

٦ـ وكان من المحتم، فقدان (تنفيذ الأمة، لذلك المبدأ ـ في واقعها ـ بايحاء تلك القيادة).

فمتى لم تعرف الأمة (مبدأ) شاملاً صحيحاً، ولا (قيادة) محدودة حكيمة... ولا (إيماناً بهما) لا تستطيع أن تعمل لتنفيذ ذلك المبدأ ـ في واقعها ـ بإيحاء تلك القيادة، حتى يجدد كيانها الفكري والسياسي المنهار.

ولذلك لا تكرس الأمة المسلمة، طاقاتها البناءة ـ في الوقت الحاضر ـ لإقامة الإسلام، وإقامة وجودها بالإسلام، لأنها لاتملك الايمان به. وما لم تملك الأمة الايمان بمبدأ، لن تضحي بجهودها في سبيل تنفيذه، والرضوخ له أبداً، كنتيجة لتنفيذه.. بل تستهلك الأمة المسلمة، نشاطاتها الاجتماعية البناءة، في سبيل تنفيذ المبادىء الوافدة، بإيحاء القيادات العميلة والأجنبية مباشرة، لأنها تملك الايمان المطلق بتلك المبادىء وهذه القيادات، فهي لا تضن بشيء من رصيدها المادي والمعنوي، في سبيل إقامتها وإقامة وجودها بها... فظهر عدم تحقق (تنفيذ الأمة، لذلك المبدأ ـ في واقعها ـ بايحاء تلك القيادة).

***

فهذه الشواهد، تبرهن على عجز القسم الثاني من عناصر النهضة الستة، في الواقع المعاصر للأمة المسلمة، وهو القسم الذي ينطلق من واقع الأمة، وارادتها وجهودها.

***

ومتى تأكدنا من حقيقتين:

١ـ تحديد عناصر النهضة لأمة..

٢ـ تحديد العجز الذي ينخر في واقع الأمة المعاصر، كان علينا:

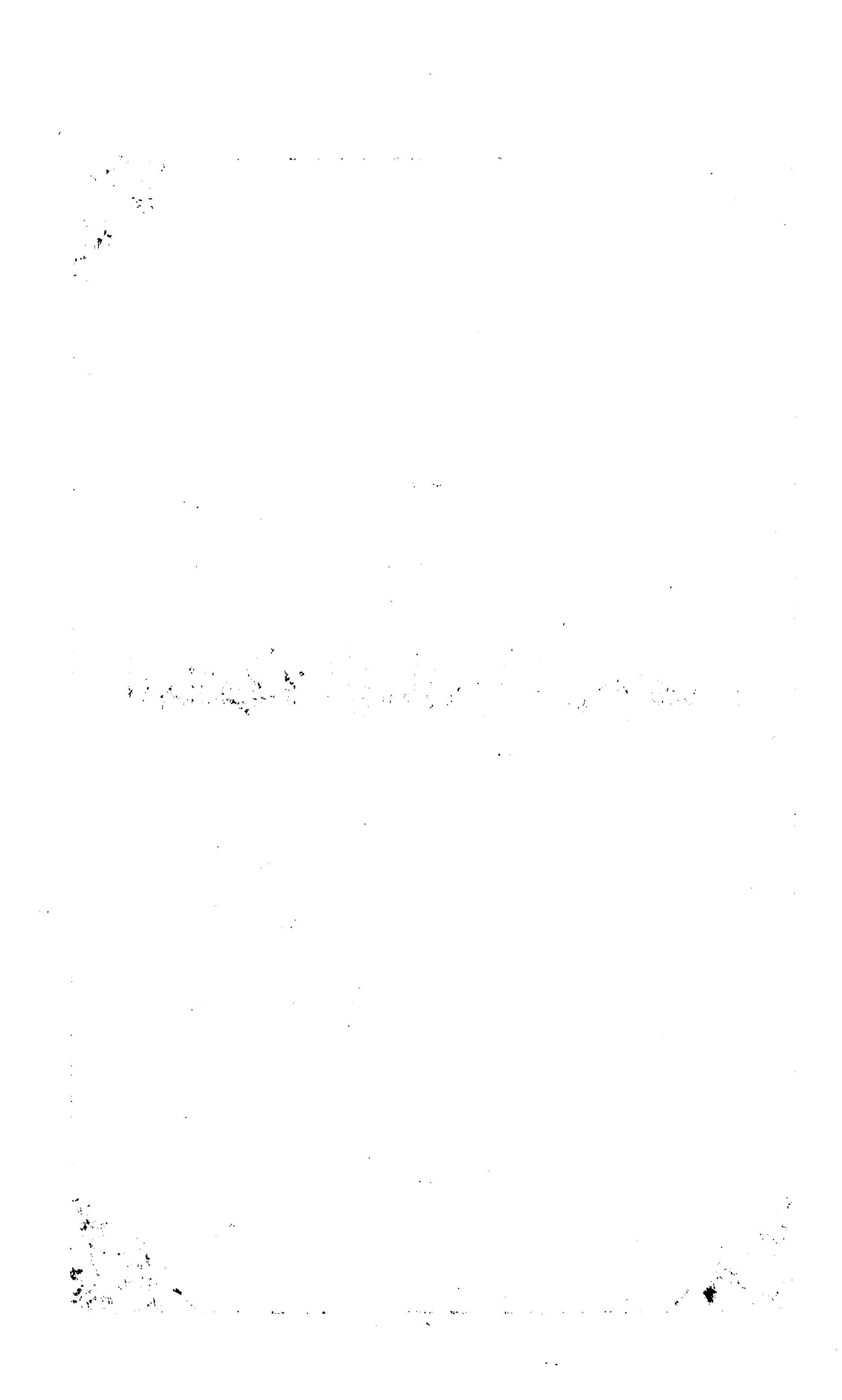
١ـ تحديد المشكلة الإسلامية المعاصرة.

٢ـ مناقشة الحلول المعروضة.




المشكلة الإسلامية المعاصرة



... ولتحديد أبعاد (المشكلة الإسلامية المعاصرة)، يجدر بنا استعراض واقع المسلم الحديث، منذ مارس وجوده الاجتماعي، بلا قيادة حاكمة، والمشاكل التي واجهها، وأشواط الجهاد الفكري والاجتماعي، وأجواءها التي تقلب فيها، حتى نواكبه في الشوط الأخير، الذي انتهى إليه، بعد تطواف عريض في شتى النواحي، ومختلف الاتجاهات، لنعرف ماذا كسب وماذا خسر؟؟

وهل استطاع تركيز الأسس الصحيحة ـ لنشيد فوقها البنيات، التي نحاول إقامتها ـ أو انه خبط حتى بالأسس المتوفرة، فيجب علينا الابتداء من الحجر الاساس.

إن مشكلة العالم الإسلامي، هي (مشكلة الكفر والإسلام) حيث إن الإسلام والكفر، كانا الخطرين، اللذين يهدد أحدهما الآخر، ولم ينجح أيهما في القضاء على مناوئه، قضاءً نهائياً، بل بقيا منذ انبثاق الإسلام، عدوين لا يفتآن عن الصراع. وكان الصراع طبيعياً يؤمن بنظام الحياة، فقد كان الكفر يديل طوراً على الإسلام، وطوراً يديل الإسلام على الكفر، فيتقلص المهزوم ويتوسع الظافر ولكن لا يلقي أيهما السلاح... وحتى

اليوم الذي كانت للمسلمين فيه حكومة، كان الصراع متكافئاً. فقد كان لكلٍ جبهة مسلحة، تملك مقومات الحياة وذخائر الصراع. وأما بعد انهيار الحكم الإسلامي، فقد أصبح الصراع غير متكافىء حيث انقلبت (جبهة الصراع الإسلامي) إلى مجموعة أفراد متناثرين، لا يملكون حتى ضرورات الحياة الخاصة، بينما سيطرت (جبهة الكفر) على مجموعة الطاقات البشرية، المسلحة وغير المسلحة، وعبئت جميعها لالغاء جبهة الصراع الإسلامي، فكان الصراع (حرب إبادة) من جانب الكفر و(استماتة) من جانب الإسلام.

وحيث استطاع (الغرب المسيحي) ان يسيطر على الجبهة المناوئة للاسلام، من بين العناصر المتألبة فيها، استغل نفوذه الحربي الجديد، للتعبير عن تراثه من أحقاد الحروب الصليبية، غير أنه جعل يتستر بأسماء مزيفة لتبرير حقده البليد، تحت شعارات تكون أبعد عن الاستفزاز العقائدي، فكان يتبرقع في ميدان الحرب المسلحة بأسماء (الحلفاء) (العدالة والحرية والمساواة) (الغرب). وفي ميدان حرب الأجهزة الدعائية، كانت براقعه (التطور) (التقدم) (النهوض) (الاختراع)... وهكذا دأب في ممارسة حملات القمع والإبادة على المسلمين، وكان يظن أنه بالقضاء على الإسلام، تصفو له الأجواء، ولم يكن يعلم أن الدين المسيحي الحاضر يغذي آمال الجماهير، ويهدهد أحلامها، ولكنه لا يصلح نظام حياة، يلملم الاجتماع كله، ويمارسه بتوفر وشمول. ورويداً رويداً، طفق يشعر بوخز الطعن في قفاه، ولم يكن مصدر هذا الطعن غير النظام الشيوعي، الذي لم يؤمن بالدين المسيحي، كحقيقة حية. وإنما عرفه رواسب تراث روحي باهظ، ففضل الاستغناء عن نتاجه على الرزوح تحته.

وما إن استوفى وجوده الاجتماعي، إلا وحاول فرز ذاته وإعلان استقلاله. ولم يكن الغرب المسيحي ليسمح له بالوجود والاستقلال، لولا تواتراته الداخلية الناجمة عن عجز الدين المسيحي عن إقامة كيان حكومي، واشتباكه المرهق مع النازية الهتلرية، في الحرب العالمية الثانية. لذا التجأ إلى الاعتراف به، وتأييده وتوثيق المعاهدات معه، للتخلص من الاشتباك معه إن اراد قمعه أولاً، واستدراجه كوقود للمعركة النازية، التي كادت تقضي على الغرب المسيحي، بصفته المستقلة..

فكرد فعل طبيعي لتزمّت الدين المسيحي، وعجزه، نتج النظام الشيوعي. وعلى اثر تدافع الظروف العالمية، وإنهاك الغرب في الحروب المدمرة، شق النظام الشيوعي طريقه في الحياة، بلا تنازع مع الغرب... ثم هدأت الحرب، وجرت الأمور في مجاريها، ويئس الغرب من إمكان القضاء على الكتلة الشيوعية، من دون اقتحام مغامرة انتحارية مجهولة المصير، ولكنه بقي متجاوباً مع الآمال التي تراوده في القضاء على الإسلام ـ عدوه القديم ـ فجدد حملات التصفية والإبادة على المسلمين في كلتا المعركتين: الحربية والدعائية. وقد خدعته مطامعه التوسعية، بإمكان تنصير المسلمين، وخطت له الكنائس أساليب كانت من تلوين الخيال الكنسي المتحجر، ولذلك فشلت فور ما عرضت على مسرح التنفيذ.. ثم التجأ الغرب إلى خطط سياسية تقضي بإلغاء الإسلام في ذهنية المسلمين، بالاغراء والارهاب والتمييع. حتى إذا استبد بهم الجوع العقائدي، وابتعدوا عن الإسلام، أمكن فرض الدين المسيحي عليهم، حيث يلاقي ـ في ذلك الحين ـ صدى تجاوب ضعيف يمكن تغذيته وتنشيطه، تعبئة لفرضه عليهم كدين...

وانطلاقاً من هذا المبدأ، وجه الاستعمار كافة اجهزة المعارف والإرشاد، لتمييع الكبار، وتربية الصغار على التحلل والالحاد. وتحركت أصابع الاستعمار لانجاز مسؤوليتها الإلحادية، زعماً أنه ينحت صنائع يكونون في قبضته. وقد فاته أن المعسكر الشيوعي، قابع خلف الستار الحديدي وناشر شبكاته في جميع أرجاء العالم الإسلامي، لصيد كل طريدة يفلتها الاستعمار الغربي من ربقة الإسلام. ونجح الاستعمار الشرقي، وفشل الاستعمار الغربي، لأن الغرب لم يسجن المسلمين في قفص حديدي يفصلهم عن العالم، حتى لا تمتد إليهم عناصر أخرى، فيظلوا تحت إرادته، كما فعل الشرق، ولا وضع أمامهم مناهج تملأ الفراغ الهائل الذي يتركه الإسلام عندما يتخلون عنه، فكان الغرب يعمل، وسينتج الشرق.

فعندما سرت إلى الشرق الاوسط، عدوى التفسخ والانحلال من الغرب، تهيأ الجو للإلحاد الذي زحف من الشرق.. ورغم أن (أيزنهاور) كان ينادي، وتنادي معه المجالس الأمريكية: وا ديناه، كان الإلحاد يعرق ويتوسع في الشرق الأوسط، لأن الغرب أعد المقدمات وأنكر النتيجة، ولا بدّ من النتاج بعد اللقاح، فالإلحاد لا يبذر ولا يتعشعش إلا في وسط الميوعة والخلاعة، والفسوق لا ينتج سوى الالحاد، كما تقول الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾. والغرب، حينما يحارب الالحاد، يحاول دحره بدين رمزي، لا شأن له في الحياة، بل يناقضه العلم والواقع، كآلهة الإغريق الخرافية، التي تبخرت في الاحتكاكة الأولى بالضوء.. وهذا الدين لم يستطع إقامة نفسه منذ الثورة الفرنسية، إلا بالسير في ركاب الأقوياء

لضرب البائسين، والتمرغ على أعتاب المستعمرين، لاستجداء بعض المال وبعض السلاح، في سبيل إنقاذه من التهافت، وصيانته من الثائرين عليه. فكيف يطيق عصمة الإنسان من التدهور والانحطاط، وانتشاله من دركات الالحاد، التي أزلقه إليها الغرب، من أجل تجريده عن الإسلام

ولقد اصطنع الغرب هذا الجو المتوتر المتردد، لضرب الإسلام وإقامة آلهته البالية وآرائه الفاسدة التي يتهم بها المسيح، غير أن الإلحاد الفوضوي، كان أقرب إلى طبيعة هذا الجو المرتبك، فالذي يرفض ديناً واقعياً كالإسلام، للاندفاع مع بواعثه الرعناء، لن يقيد نفسه بدين آخر، فإن من يكفر بالحق لا يدين بالزيوف، وإنما ينغمس في الباطل إلى قمة رأسه، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فليس ـ هنالك ـ حد وسط شاغر بين الإسلام والإلحاد، ليتربع فيه الغرب، ولا توجد انصاف الحلول، ليتبناها. فالذي يريد الحق يكون مسلماً، والذي يرفض الحق يكون ملحداً، ولا يبقى للغرب سوى القنابل والصواريخ، فإذا كان الغرب يرهب الإلحاد، فليترك المسلمين، ولا يفتنهم عن دينهم، وإلا فسينقلبون إلى ملحدين. فالمسلمون لن يصيروا صليبيين، وما جعل الله لدين الغرب نصيباً في المسلمين. وإذا كان الغرب يرهب الإسلام والإلحاد ولا يطيق التخلي عن اطماعه واحقاده فليعلم: أن أمده قد انقضى، فليس له إلا أن ينتحر. . . إذ الواقع ان الذي لم يعرف ديناً حياً كالإسلام، يستطيع أن يتكلف هضم دين الغرب الحاضر، ولكن الذي عاش الإسلام، لا يسمع خرافات هذا الدين إلا وينفجر بالضحك والاستغفار. فمن لم يكتحل بالنور، يمكن فرض الظلام عليه، ولكن من نَعِمَ بضوء الشمس، لا يرزح تحت الظلام.

كان هذا هو منطق الواقع، الذي لم يفهمه الغرب، ولا يريد الاعتراف به حتى الآن، فعندما سلخ الأمة من الإسلام، استخلفه الكفر، حتى تغلغل إلى أبعد أبعاد البلاد الإسلامية، وتصدر المناصب والعروش.

فبينما لم يكسب الغرب شيئاً من نتاج هذه الحركات، أصبح الكفر خطراً واقعاً يهدد الإسلام من صميمه، ويفتح المنافذ أمام النظام الشيوعي، ذاك العدو الآخر للغرب، ورغم أن الغرب المسيحي، والعالم الإسلامي، يلتقيان في رباط مشترك، هو الإيمان بالله وبرسله وكتبه، وكل ما أمر ونهى، ولا يشترك الغرب المسيحي، مع الشرق الشيوعي، في شيء من العقيدة الدينية، والنظام السياسي.

ولو أصبح العالم الإسلامي شيوعياً لكان أخطر على الغرب مما لو بقي مسلماً، أولاً: لأن العالم الإسلامي إذا استحال شيوعياً، كان تقريراً مصيرياً عملياً، لمستقبل الرأسمالية الدولية، إذ تقوى الكتلة الشيوعية، إلى حيث تستطيع القضاء على الرأسمالية بالحرب. والحرب هي الطريقة الحتمية للشيوعية التوسعية، حسب وصايا قادتها المبدئيين. وثانياً: لأن الإسلام إن حكم في بلاد المسلمين لا يسدد خطراً فعلياً مباشراً إلى الغرب المسيحي، لأنه يطول حتى يتضخم حجمه الدولي إلى مستوى المعسكر الشيوعي. ولأنه يصبح في العالم ذلك الحين ثلاثة معسكرات موازية. ولأن المعسكر الإسلامي، لن يضرب المعسكر الرأسمالي، ما دام يوجد المعسكر الشيوعي، بل يتعاون مع الغرب لضرب الشيوعية، أو ينقض عليها بمفرده، وأيهما كان، يتيح للغرب فترة ارتياح، يدرأ فيها عنه الخطر الشيوعي، ريثما ينصرف إلى ترميم توتراته الداخلية، وتنمية اقتصاده الذي لا يستطيع اشباع شعبه بالخبز والماء.

ولم يكن الغرب ليجهل هذه الحقيقة، أو يتنكر لها إلى هذا المدى، لو كان حراً في تفكيره وتوجيهه، ولكن توجيه الغرب في أكثر حكوماته، وغالب أدواره، منبثق من التفكير الصهيوني، الذي يفضل الشيوعية على الإسلام، ويتعاون معها لضرب المسلمين، وتأسيس دويلة العصابات في فلسطين. وهو الذي أنتج دارون، وفرويد، وماركس الذين صاغوا الالحاد الحديث. وهو الذي صنع المعسكر الشيوعي، وأمن على قيادته رجالاً من الصهاينة، أو من المتحللين الذين بنوا بزوجات صهيونيات. ولا زالت الصهيونية العالمية تحدب على فضيلتها الشيوعية، وتسهر على مصالحها ومكاسبها. ولا زالت الشيوعية العالمية تحفظ حرمة الأمومة لوالدتها الصهيونية، وتسورها من النكبات والنكسات.

فالغرب يخسر في موقفه الحاضر من الأمة الإسلامية، حيث ينفس عن أحقاده التاريخية، بتغذية عدوه الفعلي المحارب. والأمة تخسر من موقف الغرب، لأن جبهة الكفر المسلحة التي كانت في اشتباك مع الأمة، بقيت في صراعها المجنون، بينما فتح الكفر جبهة مفكرة أخرى، تمزق في أحشاء الأمة من صميمها، وتعقد حياتها في جميع مرافقها، فأصبحت الأمة محاطة من كافة أبعادها، بعد ما كانت تحارب قوة محدودة في الحدود.

وقد تضخمت وتوسعت المشكلة في مراحلها الأخيرة، وامتدت جذورها إلى كل بيت ومقهى ومنتدى، حتى أصبح في كل أسرة عائلية أو فكرية أو عملية، فرد يحارب الإسلام، ويؤيد هذا الاستعمار أو ذاك، بحيث تطورت (مشكلة الكفر والإسلام)ـ التي كانت مشكلة (الحكومة الإسلامية) وحدها ـ إلى مشكلة كل فرد وأسرة. وانبرى الجميع لمكافحة

هذه المشكلة، بأساليب غير مدروسة، أو غير صحيحة، فكانت جهوداً بلا نتاج. وفي طريق التعبئة الجماعية، لعلاج هذه المشكلة، بصورة مدروسة وصحيحة، واجهت الطلائع العاملة (مشكلة التيه والتمزق) حول الطريقة التي يمكن أن تعالج بها ارتداد الأمة وأزمة الإسلام، والمنهاج الذي يكون مضمون الصحة ومضمون النجاح.

ومن الطبيعي، أن تكون هاتان المشكلتان، مصدرين للخطر على كيان الأمة، وحقيقة الإسلام. فالأمة التي تقاسي مشكلة شعواء، ولا تعرف لها علاجاً، محكوم عليها بالفناء المحتوم، إذ لا يجد الفناء إلا موقف المكتف من السلاح الذي يفتك في صميمه.

وخطورة المشكلتين، بعثت في الأمة يقظة تائهة، للمبادرة إلى عمل ايجابي حاسم، يضمن للامة، حق تقرير المصير، في مهب الأقدار والأهواء. فارتجل كل عامل خطة، وألب جماعة، وانطلق بها ضارباً في التيه، نحو المجهول. فأدّت هذه الارتجالية الاندفاعية، إلى انشقاقات ومناقضات بعيدة المدى، في كيان أمة ممزقة لم يبق فيها عضو صحيح. ولم تتحمل مناورة ولا تبعيضاً، فتولدت (مشكلة التدافع الاجتماعي) وملحمة الأمة في نفسها، ومعركة تنازع الاتجاه العام أولاً، ومن ثم تنازع البقاء، وتنازع المصير.

فكانت (المشكلة الثالثة) أدق وأخطر من المشكلتين الأوليين، بطبيعتها وبصفتها الخاصة. أما بطبيعتها فلأن أخطر ما يقضي على الأمة والمبدأ، هو الانشقاق المبدئي، الذي يوزع القادة ويوزع معهم الأمة، ويدعهم يتطاحنون في حرب إبادة داخلية. وحيث إنهم يعرفون مواقع الخطر ونقاط الضعف، يوجهون ضرباتهم إلى صميم الآخر، حتى يقضوا

عليه. وهكذا يفنون بأيديهم عن بكرة أبيهم. . . وأما بصفتها الخاصة، فلأن المستعمرين شجعوا هذه الانشقاقات، وأضرَوا بينها العداوة والبغضاء وأيدوا المخطىء على المصيب، والمبطل على المحق، حيث وجدوا فيها ما يقوم بدور حساس من مهمتهم، حتى أصبحت في صميم واقعها، حركات استعمارية تنجز تفتيت الأمة وتحريف الإسلام. وكما يخطط ويصمم المستعمرون. وإن كان يؤديها جماعات من المسلمين بلا أجور. . . ولكن القائمين بها، المتطفلين على القيادة الإسلامية، الذين لم يرشحهم نص شرعي لمثل هذا المنصب الدقيق، وإنما تقمصوه بمحض إرادتهم الاندفاعية لم يستطيعوا معرفة واقعهم، وتحديد أبعاد الأخطار التي يسلطوها على الأمة والإسلام، وإنما اندفعوا ـ مع مقتضيات ساعتهم وظروفهم الخاصة ـ إلى اقتحام جهاد تائه، حافل بمختلف ألوان الصراع، وبشتى مذاهب العقل البشري، التي اتهم بها الإسلام، فكان جهاداً مرهقاً مريراً، يضج بالمظالم والمآسي، ويزخر بالضحكات والدموع، نتيجة لما كان متوقعاً أن ينعكس عليه، من مظاهر الارتجالية والشذوذ، عن الاتجاه الإسلامي الصحيح.

ولولا ومضات شعت في لحظات التوفيق، على اثر انطلاق أكفاء نحو المعركة، لكان الجهاد الإسلامي ـ في الفترة الأخيرة ـ لا يعدو مأساة مستمرة، وسبحاً كيفياً مغرقاً في التيه.

ولكن حسنة ثمينة، انبثقت من هذه الخسائر الفكرية والسياسية، وهي ان مجموع هذا الجهاد الشاق، كان أخْيَر العوامل، التي أدت إلى احساس المسلم الحديث، بالمشكلة الإسلامية، أكثر وعياً لعُقدها، وأشد تعطشاً إلى معالجتها، وإنقاذ المستقبل من نتائجها ورواسبها.

وبهذا تكاملت العوامل الفكرية التالية:

١ـ شعور المسلم الحديث، بأن المشكلة الإسلامية ليست مفروضة عليه من الأعلى، كما كانت أيام الخلافة العثمانية، وكما تفرض عليه القوانين الطبيعية، التي تتحكم في شخصه، وفي علاقاته مع الكون والحياة والانسان، بإرادة قاهرة، لا رأي فيها للإنسان، ولا يد ولا اختيار، وإنما المشكلة الإسلامية من صنعه، المتمثل في سلوكه الشاذ المتحلل أولاً، وفي اندفاعه الكيفي المتسلل، للعلاج ثانياً، فمن الممكن معاكستها والتخلص منها.

على العكس من المسلم القديم، الذي كان ينظر ـ في كثير من الأحايين ـ إلى المشاكل الإسلامية، كأنها مشاكل طبيعية، ترفض الخضوع لارادة الانسان، فكما لا يستطيع تحويل مسيرة النجوم، وتطوير غرائز الإنسان، وتبريد النار، كذلك لا يقدر على تعديل سلوك المسلمين، لالغاء المشكلة الإسلامية.

٢ـ سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة، وتطور هذه السيطرة، بشكل توسعي هائل، وبقفزات بعيدة المدى، وإن كانت هذه السيطرة المادية، زادت في تعقيد المشكلة الإسلامية، وضاعفت أخطارها، إلا أنها في نفس الوقت، فتحت أمام المسلم الحديث، آفاقاً بلا حدود، تزخر بطاقات متوفرة على الاستغلال، وأعلمته أن لا وجود للمستحيل في مجال العمل، وأن الصعاب تذلل بالمحاولة، وأن الدنيا للعاملين، فجعلت ارهاب التخاذل عنيفاً، وإغراء العمل عنيفاً أيضاً، والانسان لا يقوم بالأعمال العنيفة، إلا بين الإرهاب العنيف والاغراء العنيف.

٣ـ تضخم التجارب، التي ورثها المسلم الحديث، واكتسبها من

الأحداث الجسام، التي كانت تدور حوله. ثم استطاعته التطلع الواعي إليها، بصورة شاملة ودقيقة ـ على اثر توفر أجهزة الإعلام والطبع والنشر ـ فاستحصل خبرة أوسع وأكثر شمولاً وعمقاً، من الخبرات الاجتماعية التي كان المسلم القديم يستطيع تحصيلها ودرس مشاكله القائمة على ضوئها.

٤ـ الفوضى العالمية، التي نسفت جميع القيود والحدود، التي تخيل أنها حتمية وأبدية، وأسبغت على كافة الأفكار والاوساط والقيم والمُثُل، ارتباكاً حائراً، أتاح لكل قوة ـ مهما توغلت في الرجعية والتوحش ـ أن تفتح طريقها في الحياة، بقدر ما تتألق فيها الطاقة، فكل عمل مضمون النجاح بمقدار ما فيه من طاقة، ولا فشل ولا استسلام ما دامت الطاقة الفاعلة، حية متوقدة.

***

وهذه العوامل الفكرية الأربعة، تلاقحت لانتاج:

١ـ إيقاظ الشعور بالخطر، في ضمير المسلم الحديث.

٢ـ إيقاظ الإيمان بالنجاح، في ضمير المسلم الحديث.

وتواترت الآمال عليها، لمعالجة المشاكل الثلاث، ولكنها نكبت بالنكسة في مهدها، قبل التبلور، لأن عدم نضوج هاتين اليقظتين، وعدم خلوصهما من المصالح الأنانية، جعلا منهما مادة سخية، لتغذية المشكلة الثالثة، الناجمة من تشعب الآراء حيناً، وتناقض المطامع والأهواء أحياناً. ورغم أنها كانت تدعي العمل، لمعالجة المشكلة الكبرى، التي كانت تدور بين (الكفر والإسلام) إلا انها تشاغلت بنفسها في صميم الأمة، وانصرفت إلى عالم الاصطدامات، لإيقاد ملحمة شعواء، تحز في واقع الأمة وتؤلب عليها الأعداء.

وهكذا تطورت المشكلة الواحدة، إلى مشاكل عديدة متوالدة، تحمل في طياتها العقد والأزمات الكثار، شأن كل مشكلة تبقى حقبة زمنية بلا علاج... ورغم أن المشكلة قد تعددت وتوالدت، إلا أنها تعالج تلقائياً إن عولجت المشكلة الأولى: (مشكلة الكفر والإسلام)، فان (مشكلة التيه والتمزق) و(مشكلة التدافع الاجتماعي) مشكلتان فرعيتان، لا يمكن وجودهما بعد معالجة المشكلة الأولى. فالمشكلة الإسلامية المعاصرة، هي المشكلة السابقة: مشكلة الكفر والإسلام)، التي لا زالت تبحث عن العلاج.

ولا زال كل متشدق ينتصب لإعطاء الجواب على هذا السؤال، حتى تراكمت حوله أجوبة كثار، وكانت فيها أجوبة ملفوظة ترسل على عواهنها، وكانت أجوبة عملية ومحاولات.

فوضع أقوام (أنظمة) ظنوا: أنها العلاج الناجع، لجميع أدواء العالم الإسلامي كله، ومصائب العالم البشرية جميعاً. وحسبوا أنهم فقط، أصابوا كبد الحقيقة وقلب الواقع، وأن الناس الذين لا يستجيبون لهم، مردة معاندون، والله تعالى خلق الجنة لآحادهم، وخلق الناس جميعاً ليكونوا حصب جهنم... ولما رأوا أن محاولاتهم ومناوراتهم ومناداتهم فشلت دون أن يتجاوب معهم الناس، وإنما تحاموا عنهم ونظروا إليهم شزراً، تأكدوا من صدق مزاعمهم، وكونوا (أحزاباً) لحماية وتنفيذ تلك (الأنظمة) التي لم يقبلها الناس بسلام، لا بالحجة والبرهان، بل بالعنف والإرهاب، ولم يجد بعضهم بأساً في التعاون مع السلطات الإستعمارية، لانجاز هدفه السماوي المجيد، ما دام الناس مارقين، لا يصلحهم إلا السيف.

وانصرفت جماعات إلى تقرير (مناهج) سوّل لهم الشيطان: أنها بنود الوحي، التي ما أنزل الله بغيرها من سلطان، فمن انتقد شيئاً منها، أو لم ينضو تحتها، فهو مارق مدسوس، ووجوده أكبر خطر على الأمة والإسلام، فيجب إبادته فوراً، وعلى الأقرب فالأقرب... وبهذه النظرات الضيقة، التي ألّفت فئات وجمعيات، تحمل الأسماء الإسلامية، وترفع الشعارات الإسلامية، لا لتنشيط الحركة الإسلامية، وإنما لضرب العاملين المجاهدين الذين لا يستجيبون لناعقيها الأدنين.

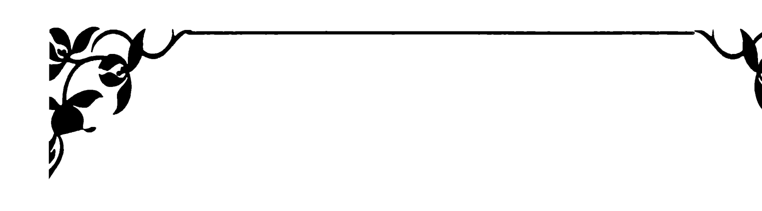
وتبنى آخرون طرائق ووسائل متنوعة، توجه طاقات المخدوعين، إلى خدمة السلطات الاستعمارية أو المحلية، أو تهدف إلى إرواء أطماعهم الفردية الجشعة، أو تباشر ضرب العالمين، والهدم في كيان الأمة والإسلام.

وقد تكون هذه العناصر، في بادىء تكونها مخلصة صادقة، ولكنها لا تقتحم الواقع المتناقض، إلا وتتأثر بأقوى التيارات، أو تستحيل إلى شيء لا يتبنى الإسلام، إلا لتزيد الموقف تأزماً وتعقيداً.

ورغم كثرة هذه الاجابات وتكررها، لم يوجد فيها ـ حتى الآن ـ الجواب السليم. ومن المؤسف أن يعلن الواقع فشلها دون انجاز هدفها الاساسي، وانحرافها عن مناهج العمل الإسلامي.

ومما يؤكد فشلها ـ بصورة واضحة ـ: انها لم تعالج المشكلة، وإنما بقيت متفاقمة نامية، ولو كان فيها الجواب الصحيح، لما بقي خيال المشكلة شبحاً مرعباً يهدد بالأخطار والويلات، ولما بقي السؤال على كل لسان:

ما هو العلاج للمشكلة الإسلامية الكبرى؟..



الحلول المعروضة



قبل استعراض الحلول، التي تفاعلت على المسرح التجريبي، نبدأ بتحديد الشروط، التي يجب توفرها في كل عمل اسلامي، يحاول معالجة المشكلة، حتى يصح إطلاق (العلاج الإسلامي) عليه.

١ـ أن يكون علاجاً فعلياً تجريبياً، يحل المشكلة في مدى تنفيذه، وأما لو كان علاجاً شعراً مغرقاً في المثالية، فلا يصح اعتباره علاجاً.

٢ـ أن يكون علاجاً منبثقاً من صميم الإسلام، بوحيه وأساليبه، لأن الإسلام ـ باعتباره ديناً فكرياً عقائدياً ـ يرفض كل علاج يقضي على مشكلة، ما لم يكن منتزعاً منه. فالنظام الشيوعي، يعالج مشكلة الإقطاع، والنظام الاشتراكي، يعالج مشكلة الاقطاع، رغم أن الإسلام لا يعترف بهما، وإنما يعترف بنظام (إحياء الموات) المنتزع منه. وكذلك الشيوعية الديالكتيكية تعالج كافة المشاكل الفردية والاجتماعية والدولية. والرأسمالية البورجوازية تعالج كافة المشاكل الفردية والإجتماعية والدولية، مع أن الإسلام لا يعترف بمعالجاتهما، وإنما يعترف بمعالجاته الخاصة، المقررة في الفقه الإسلامي، فلا بد أن يكون العلاج الإسلامي، مستنبطاً من مصادره الفقهية، لا مقتبساً من الأنظمة الأجنبية الوافدة.

٣ـ أن تتوفر لديه (الضمانات) التي تكفل للإنسانية صدقه وصوابه، عند الله وفي رأي الإسلام، لأن مجرد الاقتباس من مصادر الشرع الإسلامي، لا يغني لإثبات حقيقة دينية، بل لا بد من توفر (ضمان) يؤكد واقعيتها وإلا فإن الاثنتين وسبعين فرقة (الهالكة) التي تشعبت من الإسلام، تستوحي ذاتها من الكتاب والسنة النبوية. فلو كان مجرد الاقتباس من مصادر الشرع الإسلامي، كافياً في اعتبار حقيقة دينية، لكان الواجب اعتبار تلك الفرق (ناجية) لا (هالكة)، ولكن حيث إن استيحاءها لا يملك ضماناً، فإنه يعتبر باطلاً يؤدي بها إلى الجحيم.

ولا نكون واقعيين إذا اتخذنا (الاقناع) ضمان الحق والصدق، في تقرير المصير، أو في أي شيء. والإسلام لا يعتبر (الاقناع) ضماناً، أولاً: لأن الاقناع لا يكون له معنى ما لم يكن بين (مجتهدين) بالغين مبلغ (الاجتهاد الشرعي) الذي يعبر عنه في الفقه بـ(الاجتهاد المطلق)، وفي غير الفقه بـ(الخبرة). أما (الإقناع) الذي يكون أحد طرفيه، أو كلاهما غير (مجتهد)، فلا يصح إطلاق (الاقناع) عليه، بمحتواه الاصطلاحي، بل يكون من نوع (إقناع) المجانين والاطفال. وثانياً: لأن (الإقناع) يكون بالحق وبالباطل، وما أكثر الناس إلا (مقنعين) و(مقتنعين) بالباطل، ولن يعترف الإسلام ـ ما دام ديناً فكرياً واقعياً ـ بـ (ضمان الإقناع) الذي يزج بأكثر الناس في الباطل. ولو اعترف الإسلام بضمان الاقناع، لاعترف بـ(الديموقراطية المطلقة) التي تعتمد على (الاقناع الحر)، ولاعتبر كل مؤمن بباطل محقاً يدخل الجنة مع الأنبياء والصديقين، ولاعترف بجميع آراء الفلاسفة المارقين الذين يبنون آراءهم عن اقتناع، ولصدق إلحاد الملحدين المبدئيين، ولحشر قتلة الحسين والشهداء الابرار، في

المجاهدين، لأنهم كانوا يتقربون إلى الله بدمائهم، ولاستغنى الناس عن الرسالات السماوية وعن الأنبياء والأئمة ﷺ، ما داموا يملكون (الاقناع). وهل سادت مبطلة إلا بالاقناع؟..

على أن (الاقناع) ليس ضماناً واقعياً، لأن من الهيِّن اقناع كثير من الناس، بكل كذب وزور، كاقناعهم ببرودة النار، وخفة الحديد، وقرب البعيد، وظلمة النور. فلو كان الاقناع ضماناً واقعياً، لبطلت الحقيقة، ولم يكن واقع أبداً.

فالإقناع ليس ضماناً في نظر الإسلام، وإلا لبطل الإسلام كله، وليس ضماناً في نظر الواقع، وإلا لصدق السوفسطائيون، في بطلان الحقيقة، وانكار كل شيء.

وإذا سقط ضمان الإقناع، وجب للضمانات التي تثبت حقيقة دينية، أن تكون نفس الأمور التي قررها الإسلام، ضمانات لإثبات الحقائق الدينية.

٤ـ أن تتوفر المصادقة الشرعية، على كافة مرافقه، فإن توفر الضمانات الشرعية، في إدراك الهدف والطريق، لا يكفي لتبنيهما، ومعالجة المشاكل الإسلامية على أساسهما، بل يتوقف تبني هدف وانتهاج طريق، على مؤهلات أخرى، يمكن تلخيصها في توفر (قيادة اسلامية) وانطباق بنود الهدف وخطوات الطريق، على المشاريع الإسلامية، وخطوات الرسول والأئمة الاطهار ﷺ، بدقة وصدق وإخلاص.

٥ـ إسلامية الفلسفة التي تستقي منها جذور الحركة، لأن المعالجات

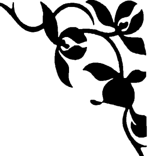
تختلف باختلاف الفلسفات النظرية حول الحياة والإنسان والإسلام.

فهناك من يرى: أنه مخلوق أوجده الله تعالى، في المجموعة البشرية، ليشق الطريق إلى قمة تفتحه وانطلاقه في هذه الفترة القصيرة ـ الحياة الدنيا ـ من عمر الإنسان الطويل، فالحياة مدرسة تربوية، كل شيء فيها محدود ومرسوم، معلوم الأبعاد والأهداف والاتجاه. من قبل خالق الكون ومنظم الحياة، والإسلام هو النظام الكامل، الذي قرره الله تعالى، وفقاً لما قدر في الحياة من نظام تكويني، والانسان عبد ناشىء، نبوغه الوهاب في التلقي والتنفيذ، لا في التقرير والاختيار ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾... وهذا الانسان، يستجيب للاسلام كلاً مجموعياً، لأن الله تعالى أمره به فحسب، سواء أعرف فلسفته أم لم يعرف، وسواء تجاوب مع رغباته أو ناقضها، لأنه لا يهدف رضاء نفسه من ورائه، وإنما يهدف رضاء الله، الذي لا يناله إلا بالتطبيق ككل مجموعي، ولا يرى لنفسه حرية إلا في الحدود التي وفرها عليه الإسلام نفسه، لأنه عبد مطوق برقابة مرهفة، تحصي عليه النظرة والنأمة، والانفاس والنيات، وكلما يعلم: أن منهاج السماء أنجح نظام لاسعاد الانسان. وتنظيم الحياة الدنيا، وإن إرادة الله فوق تفكيره واختياره. وإلى جانب هذا الإنسان هناك من يرى: أنه كائن وجد على الأرض، تعبيراً عن قوة الحياة، فله ان يعبر عن طاقاته ومواهبه، فيرفض ويختار، ويبني ويدمر، كيفما توحي إشاءاته ورغباته الفردية أو الجماعية.. وهذا الانسان، لا يأخذ بالإسلام، إلا إذا عرف صدقه، وبمقدار ما عرف من فلسفته، وحيث إنه لا يهدف رضا الله من انتهاج الإسلام، وإنما يروم

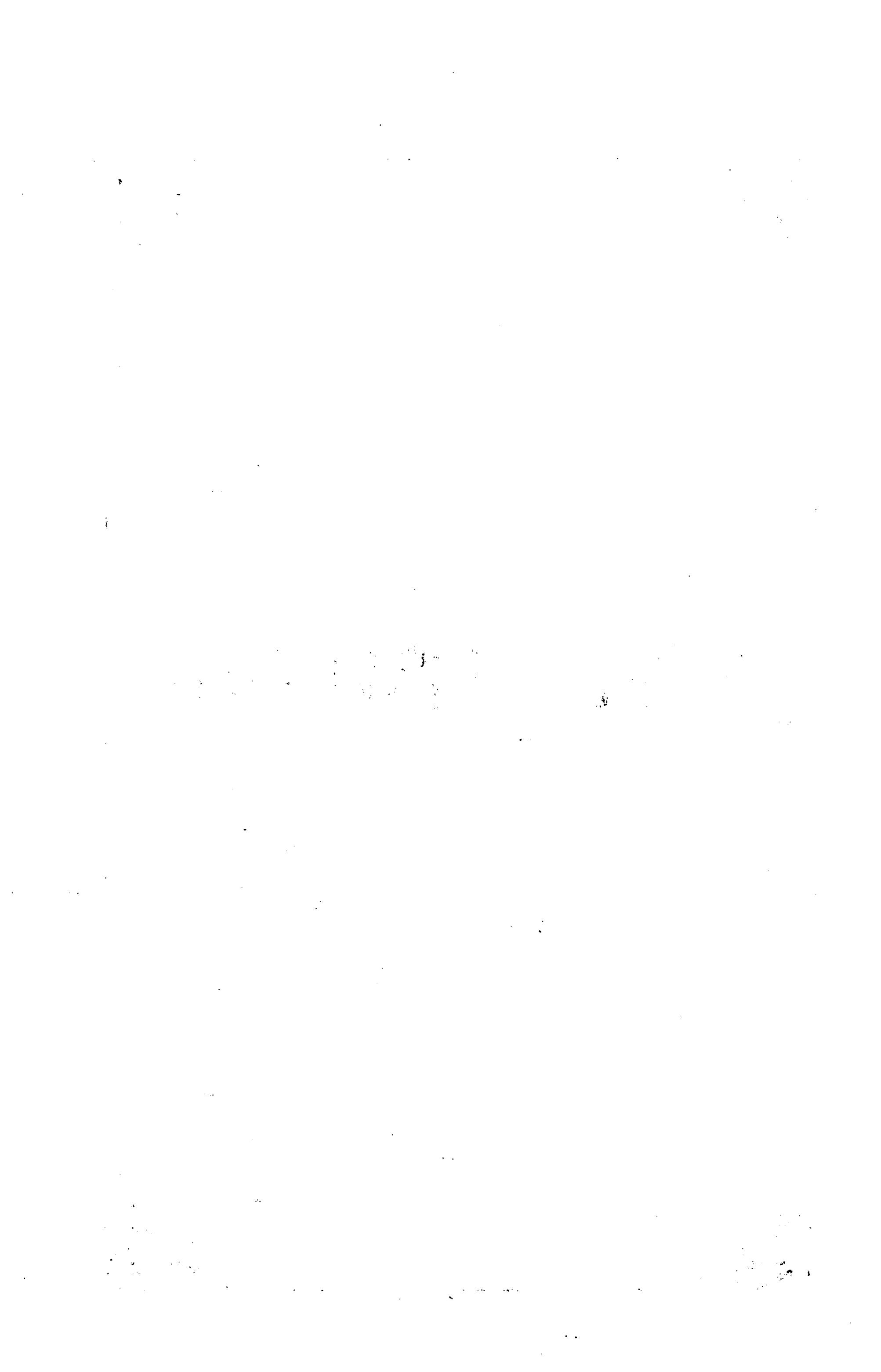
اسعاد شخصه عن طريق تفكيره، ولا يستوعب فلسفة الإسلام كله، يعيش متذبذباً أبداً، لا يؤمن بالإسلام كله، ولا يكفر بالإسلام وإنما يأخذ ببعض الإسلام، الذي يوافق تفكيره، ويبني بقية حياته على ما يوافق تفكيره ـ أيضاً ـ من سائر المبادىء والنظم، دون أن يفرق في التقييم بينها وبين الإسلام. ومن الطبيعي أن لا يعترف الإسلام إلا بالانسان الأول.

وأما الإنسان الثاني، فهو من الذين صعقهم القرآن الكريم بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وباختلاف وجهات النظر الفلسفية، حول الحياة والإنسان والإسلام، تختلف الحركات العاملة، لعلاج المشكلة الإسلامية. وكنتيجة مباشرة لهذا الاختلاف، سرى الانشقاق في حركة الأمة، لعلاج المشكلة الإسلامية إلى مئات الحركات الموضعية المتضاربة، التي يمكن حصرها في ثلاثة اتجاهات:

حركة الأحزاب الإسلامية



وطبيعة هذه الحركة: إنها تبدأ بفرد مفكر، أو أفراد مفكرين، آمنوا ـ اجمالاً ـ بأن الإسلام في الصيغة التي تصوروه فيها، هو النظام الأصلح، الذي يوفر السعادة للإنسان، فقرروا: تنظيم حركة قاعدية هرمية، لتنفيذه في واقع الحياة.

فنصبوا أحدهم قائداً للحركة، أو نحتوا من مجموعهم قيادة جماعية مشتركة للحركة ـ حسب اختلاف الآراء في توحيد القيادة أو جماعيتها ـ وساروا في الطريقة الحزبية السرية أو العلنية، ليسيطروا على الحكم، عن طريق الثورة العسكرية المسلحة، أو أكثرية الأصوات في البرلمان، فيبدلوا نظام الحكم المباد، بنظام الحزب الظافر، ويرغموا الشعب على تقبل النظام الجديد، بنفس الأجهزة والأساليب السابقة.

تلك نواة الأحزاب الإسلامية، في الفكر والخارج، وهذه صيغة حركة الأحزاب الإسلامية، منذ منطلقها، حتى مسيرها ومصيرها، وهي ليست حركة اسلامية، في واقعها المقنع باسم الإسلام، وإن حملت شعاراته. لأن الحركة الإسلامية الصحيحة، هي التي تكون في بواعثها وأساليبها وأهدافها اسلامية في الصميم، بحيث إذا انحرفت قيد شعرة،

يبدو الانحراف فيها شذوذاً، لا أن تكون الحركة في بواعثها وأساليبها وأهدافها غير إسلامية، حتى يلاحظ فيها الالتقاء مع الإسلام شذوذاً . . . وحركة الأحزاب الإسلامية، في صيغتها المجموعية، نسخة طبق الأصل، من الحركات الحزبية الديموقراطية، المتفاعلة في (العالم الحر) ولا تختلف عنها في نوعية الحركة وأبعادها ومرافقها. وكل ما يجسد الاختلاف عنها، هو أن بعض المواد من نظامها مقتبس من الإسلام، وهذا وحده، لايجعل الحركة اسلامية ـ بالواقعية الإسلامية الشاملة ـ كما أن نظم الاحزاب الشيوعية، تنص على تحريم الربا والاحتكار... والنظم الرأسمالية، تؤكد الملكية الفردية، وحرية التجارة... والديانة اليهودية، تثبت كثيراً مما جاء به الإسلام، منذ الربوبية، حتى موسى بن عمران. والديانة المسيحية، تتفق مع الإسلام في كثير من أصوله وفروعه، بل لا يوجد في العالم نظام ولا دين، إلا ويلتقي مع الإسلام في بعض أهدافه وأحكامه، وهذه الالتقاءات الصدفية أو الهادفة، لا تجعل تلك الحركات والأديان، اسلامية، وإنما تبقى ـ كما هي ـ اشتراكية أو رأسمالية، أو يهودية أو مسيحية، أو أي شيء يصوغ صيغتها المجموعية.. كل ما هنالك أنها تتفق في بعض موادها مع الإسلام. وهذا الاتفاق إن دل على التقارب ـ بنسبة الالتقاءات ـ فإنه لا يدل على أن هذه تلك في واقعها الصميم.

فحركة الاحزاب الإسلامية، حركة ديموقراطية، لا تنتمي إلى الإسلام، لأن:

أـ قيادتها، قيادة ديموقراطية، لا إسلامية، إذ القيادة الإسلامية، لاتتمثل إلا فيمن تكاملت فيه مؤهلات (مرجع التقليد)... وطريقة تنصيبه ليست الانتخاب والاختيار الكيفيان، وإنما تتحقق بإثبات توفر تلك

المؤهلات فيه، فهو لا يحتاج إلى أكثر من التمييز والتعرف عليه، بواسطة تحكيم (أهل الخبرة)، الذين لا يحق لهم استخدام صلاحياتهم إلا في مجرد التحديد والبيان. بينما تكون قيادة الاحزاب الإسلامية، متحررة من مؤهلات (مرجع التقليد)، فلا يشترط في القائد الحزبي، الاجتهاد في الفقه الإسلامي، ولا أي واحد من شرائط المرجع، وإنما يتولى قيادة الحزب، فرد مفكر، أو يشترك فيها أفراد مفكرون، ممن لهم السوابق الحزبية، وإن انحسرت عنهم كافة مؤهلات (مرجع التقليد) فإن المؤهلات الحزبية، إذا توفرت في شخص رغماً عن جميع النواقص والانحرافات الاخرى، فان الحزب يفضله على اعظم مرجع لا تتوفر فيه المؤهلات الحزبية.

ثم (ينتخب) هذا الفرد، أو تلك الكتلة، لقيادة الحزب، انتخاباً ديموقراطياً، يستند إلى اتفاق (أكثرية الأصوات) العددية، على ترشيحه لمركز القيادة.

ب ـ إن حركة الاحزاب الإسلامية، بند صميم، من الحركة الديموقراطية العضوية، ولا يمكن فرزها من الديموقراطية، حتى بسكين الجزار، ولا يجدي ما يستدل به على اختلافها من (ان نظام الاحزاب الإسلامية، مقتبس من الإسلام، والنظم الديموقراطية، غير مستوحاة من الإسلام)، لأن الديموقراطية، منهج سياسي يحدد طريقة الحكم، وليس نظاماً داخلياً، يختلف مع الإسلام في قوانينه الداخلية أو يتفق، فيتلخص مفعولها في (جعل الشعب مصدر السلطات) وإلغاء المصادر الأخرى، ومؤدى ذلك: ترك حرية شرع النظام وتنفيذه للشعب ـ المتمثل في الاكثرية ـ والنظام الداخلي للاحزاب الإسلامية، لا يناقض هذه

الفحوى، بل إن صيغة الأحزاب الإسلامية لا تطيق سوى تنفيذ الديموقراطية، لأنها تتكون تكوناً ديموقراطياً، يؤمن بتحكيم رأي الأكثرية، في كافة خطوطها وأساليبها ومرافقها، ثم يكون تنسيق خلاياها تنسيقاً ديموقراطياً، فينظم كل خلية منها بارادة أكثرية أعضاء الخلية، لأن رئيس كل خلية، عضو اعتمدته أكثرية آراء الخلية، والخلايا القاعدية، تنتخب خلايا الطبقة الثانية، بأكثرية آراء الخلايا القاعدية، وهكذا تتراكب بنيات الخلايا فوق بعضها، بإرادة أكثرية الخلايا حتى تكون الخلية العليا، أو المجلس الإداري للحزب، خلية فازت بثقة أكثرية خلايا الحزب، فالقمة في كل مرحلة لا تكلل بالنجاح، إلا باعتماد أكثرية آراء تلك المجموعة القاعدية، التي ترفعها على أكتافها.. فلا يكمل تشكيل هيكل الاحزاب الإسلامية إلا كما يكمل تشكيل هيكل الأحزاب الشيوعية والفاشية.. فتكون الحركة في تصميماتها العضوية، حركة ديموقراطية خالصة، قوامها رأي الأكثرية... ولا يفوز فيها أحد، إلا بعد اقناع الأكثرية بالانضمام إليه، لتعود الأكثرية هي الحاكمة، بلا مناوىء، لتتم حكومة الشعب، وينفذ (الشعب مصدر السلطات).

ج ـ وعلى أثر انتخاب قائد الحزب، بأكثرية الأصوات يتجه الحزب ـ بتوجيه عملي لا شعوري آلي ـ إلى (عبادة الفرد) إذا انتخب فرد واحد لقيادة الحزب، كما يتجه إلى (عبادة المجهول) ـ إذا انتخب أفراد مجهولون للقيادة ـ وان ترددت في خطب الحزب ومحاضراته: إنه ضد عبادة الفرد وعبادة المجهول، لأن الواقع يفرض نفسه اتجاه الإنسان، أكثر من الكلام.

فالحزب الذي يلقن جميع أعضائه، باستمرار، وجوب اطاعة الفرد

القائد، أو الأفراد المجهولين، لأنهم يتفوقون بالعبقرية الحية، ويمتازون بنشاطات ونضالات سابقة، لا يمكن لأحد انجازها بعد توسع الحزب، ينحدر إلى عبادة ذلك الفرد المتفوق، أو أولئك الأفراد المتفوقين، عبادة لا شعورية عمياء، حيث يتصورهم فوق المعدل، الذي يرفعهم فوق مجالات التسابق والمجاراة.

فيما الناس لو علموا: أنهم إنما يطيعون الرجل المعين، لتجمّع صفات معينة فيه، لو توفرت في أي انسان آخر، أهلته للقيادة الفعلية، لا يتوجهون إلى عبادة شخصه ـ باعتباره شخصية فائقة فحسب ـ وإنما يقدرونه باعتبار صفاته، وبمقدار مؤهلاته، فيترفعون عن الشخص ويتوجهون إلى التسابق في تلك الصفات، التي تؤهل الأفراد للقيادة.

ولا بد أن لا نتغافل عن الخسائر التي يتكبدها المجتمع، بالانحدار إلى عبادة الفرد، كما يجب أن لا ننسى المكاسب التي يدرها على المجتمع، تخطي الفرد، والارتفاع إلى مستوى القيم، فالمجتمع إذا اتجه إلى (عبادة الفرد) يجعل ذلك الفرد (قدوته) التي يسعى إليها في حياته العملية، و(مقياساً) مجسداً للقيم التي يؤمن بها، فيتلاعب بها، بتطور ذلك الفرد، ومتى أيقن (الفرد المعبود) بهذه المركزية المستقرة لنفسه، ينفلت من جميع القيود المثلية والفضيلية، مندفعاً مع نزواته، إلى حيث قد ينقلب إلى وحش هائج، لا يؤمن إلا برغباته ونداءاته، واثقاً من أن ثقة الحزب، لا تسحب منه مهما تطرف وانحرف، لأن القيم الاجتماعية ـ في رأي الحزب ـ تطاوعه ولا يطاوعها، فهي تدور معه ولا يدور معها.. وكم ذا يقدر الخطر الذي يدهم القيم الاجتماعية، متى آمنت كتلة من الناس، بفرد لا يؤمن بشيء من القيم؟..

على أن، مثل هذا الفرد يشكل خطراً هائلاً على الحزب، بصفته الخاصة، وعلى القيادة بصفتها العامة، حيث لا يضمن المستقبل ولا الحياة، لحزب يقوده انسان منفلت متحلل، ولا تؤمن القيادات على مصالح الأمم والشعوب، متى ارتبكت مقاييسها حتى زحزحت عن ركائز الاجتماع إلى الشذاذ... وقد وجدت الأحزاب والقيادة والحياة الإنسانية، شر أزماتها من القادة الحزبيين، الذين أفسدتهم السلطات المطلقة، حتى حاربوا جميع الأهداف التي حاربوا من أجلها الحكومات، ولئن بلغت النماذج الحزبية قمتها في نظائر: ادولف هتلر، وماوتسي تونغ، وستالين، وموسوليني، فإن جميع قادة الأحزاب، ينحرفون عن نفس المبادىء التي كانوا يدعون إليها، ويناقضونها، بمجرد استتباب الحكم لهم، ويحولون السلطة الحكومية ـ التي ينتزعونها باسم الفقراء والكادحين من الطغاة المجرمين ـ إلى سلطة طاغية، كأقسى السلطات الإجرامية المستبدة، ولم يظفر زعيم حزبي بالحكم، إلا وبدأت مأساة الشعب، في ليل ثقيل... وبانحراف القائد الحزبي ـ الذي يدعمه حزب كامل ـ ينحرف حزب يدعمه جهاز دعائي عام يبرر انحرافاته بتلفيقات مزورة، تغري ضعفاء النفوس، بالاندفاع معه، وهذا يؤدي إلى انحراف كتلة واسعة من الشعب، لمجرد انحراف قائد حزبي واحد، وهذا ناتج من الاتجاه الفردي ـ في قيادة الأحزاب ـ الذي يؤدي إلى (عبادة الفرد).. فيما لو اتجه الناس إلى الإيمان بالمقاييس التي صممها الإسلام، وإلى تقدير القيم والصفات النبيلة، قبل أي شخص أو اعتبار ـ كما في قيادة المراجع ـ ينزعون إلى تلك القيم، وينتزعون منها (قدوتهم) ويجعلونها مقاييس للأفراد، بما فيهم القائد الأعلى، فلا يعظمون المثل

البشرية، إلا بمقدار ما تنعكس فيها قدوتهم الفكرية، وفي مدى انعكاسها عليها، ثم يكفكفون تعظيمهم عمّن يتخلع عن صفاته المثالية، فور تخليه عنها، فلا يبقى في ارتباك وخطر، وعرضة لإشاءات شخص القائد، كما يضطر القادة، إلى تأصيل القيم فيهم، وفحص أنفسهم لتعديلها وترميمها، من فترة إلى فترة، خوفاً من مغبة الانفلات من حدودهم، وإبقاء على ثقة الناس بهم، فتعيش القيم في حدودها، ويعيش القادة في مستوى القيم ومستوى المسؤولية.. ولذلك كان (المراجع) في مختلف أدوار الحياة الإسلامية، يوجهون بعض الخطباء والأبرار، لمراقبة سيرهم النفسي والديني مع أنفسهم، وردعهم عن الانتكاس الديني ـ إن لمسوا منهم ذلك ـ.

د ـ والأحزاب الإسلامية، تكون متطرفة، تلحف على الجانب السياسي من الإسلام، وتهمل بقية الجوانب الحيوية منه، التي لا يتكامل الإسلام إلا بها، تبعاً للتكتيك الحزبي الهادف إلى تكريس الجهود للتضافر على تسلق الحكم، وتتفلسف الأحزاب الإسلامية، لهذا التطرف المفرط، بوجوب توارد النشاطات، لانتزاع الحكم الإسلامي كله، من الأيدي العميلة والمنحازة، ريثما يكون الأمر كله لله، فإذا تخلص الحكم الإسلامي من قبضاتهم، وائتمن عليه رجال مؤمنون، لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، تحيى كافة معالم الإسلام، ومشاريعه العبادية، بصورة تلقائية، تلبية للجو الإسلامي الحاكم، فلا مبرر لاهدار الطاقات الواعية ـ الآن ـ في سبيل الطقوس العبادية، والأمة تشتكي عجزاً ذريعاً في المجال السياسي... فبهذا المنطق، تحاول الاحزاب الإسلامية، تغطية تطرفها وتبرير انحرافها، ولكنه ليس منطقاً واقعياً يعبر عن طبيعة

الحياة، وسير الحركات الهادفة فيها، لأمرين، الأول: إن الواجب المباشر الذي يواجه كل من يعمل للإسلام في مستوى الحكم، هو أن يوسع ويؤصل القاعدة الإسلامية في المستوى الشعبي، حتى تنبثق منها أجواء إسلامية، تسمح للحكم الإسلامي أن يسودها، وتؤيده حتى يبقى طويلاً بعد تكونها، لأنا لو افترضنا: ان الحكم الإسلامي، استطاع أن يقفز على القيادات الحكومية العليا، بواسطة ثورة عسكرية ـ مثلاً ـ في قطعة من الأرض، وكان الشعب لا يؤمن بأفضلية الحكم الإسلامي، بل يعرفه من أبشع مظاهر التخلف والجمود، فإن هذا الحكم لا يستطيع أن يستقر، ولو توسل بالسلاح لإرغام الشعب، وضرب كل فئة تناوئه، فإنه لا يكتب له البقاء، وإنما ينقرض بعد ان شحن الجو الشعبي بأوبئة استياء، تقضي على آخر أثر للإسلام، بحيث لا يكتب له النشور فيها وفي القطاعات المجاورة لها آماداً بعيدة من الزمن، فلا بد قبل محاولة تكوين الحكم الإسلامي، من تركيز قاعدة شعبية واسعة، وايجاد أجواء عامة إسلامية، وتلك القاعدة وهذه الأجواء، لا تتكون ما لم تسد المظاهر العبادية بصورة جماعية توسعية. فالواجب على الأحزاب الإسلامية، ان العمل الإسلامي في مجال العبادات، قبل العمل الإسلامي في مجال الحكم، لأن الحكم الذي يأمن الإطاحة والتهافت، هو الحكم الذي يرتفع من القاعدة إلى القمة، دون الحكم الذي ينقض من القمة على القاعدة.. الثاني: انه لو توسع حزب متطرف من هذه الأحزاب، حتى بلغ الحكم، فماذا يكون موقفه من الحكم؟.. هل يلتقط الرجال العدول الأكفاء، من شتى أنحاء البلاد ـ مع قطع النظر عن كونهم حزبيين أو لا حزبيين ـ ويدفع إليهم مقاليد الحكم، أو يعتزل هو عن الحكم، حتى

يحكم أولئك الرجال العدول، باجتهاداتهم الحرة، أم يستبد الحزب نفسه بالحكم، ويضرب بقسوة عاتية، على كل يد تمتد إليه، مهما كانت أمينة مخلصة، ويستعرض الأعضاء الحزبيين الثائرين، لتسلم مقاليد الحكم؟؟.. لا بد من الاعتراف بأن الحزب نفسه سيتولى الحكم، فحينئذ لا بد من الاعتراف أيضاً، بأن الأفراد الذين لم يلتزموا بالعبادات ـ مثلاً ـ عندما كانوا أعضاء حزب بسيط، لن يقيدوا أنفسهم بها بعد ما أصبحوا حكاماً، فالحكام قد يحدث فيهم الانحدار، ولا يحدث فيهم الإرتفاع، ولن يستطيعوا تقييد المجتمع بها، ما دام المجتمع يعرف أنهم لا يتقيدون بها، خاصة والعبادات من الأمور التي لا تتحكم فيها السلطة الجزائية، وإنما هي فقط من نتائج الوازع الديني..

بالإضافة إلى أن الحزب الذي خلص للجانب السياسي فقط، وهو حزب ناشىء، لا يستطيع تحكيم الإسلام كله، إذا سيطر على الحكم، وهدت كاهله المشاكل الحكومية، زيادة على المشاكل الحزبية، حينما يخرج من النطاقين الحزبي والإقليمي، إلى النطاقين، الشعبي والدولي، فتتزايد عليه المطاليب، التي تستهلك مزيداً من الفراغ والنشاط، فلا يجد الحزب إلا أن يمارس جانبه السياسي، ويهمل بقية الجوانب، كما تعود ذلك منذ نشوئه.

على أن الاتجاه الحزبي العام، حيث ينبعث من اتجاه الفرد القائد، أو المجلس القيادي، والفرد أو المجلس، متى اطمأن من ثقة الحكم، يستجيب لنزوعه الذاتي، إلى السيطرة والسيادة، فيكرس اهتمام الحزب، لهذا الهدف الأناني الصغير، ويضفي عليه الف فلسفة مغرية، ويصوره للرأي العام الساذج، ارادة الله التي لم يطلب سواها، ويحاول ـ بألف

تفسير مزيف ـ خنق وإنكار تصريح القرآن الكريم: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿...أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ...﴾ والإسلام مجموعة متكاملة، يجب أن يؤخذ كله أو يترك كله، والإنسان الحزبي الذي يسعى في الجانب السياسي منه فقط، لا يختلف في منطق القرآن، عن العابد الذي يمارس الجانب العبادي منه فحسب، في أن إسلام كليهما، اسلام ناقص.

هـ ـ إن العمل للإسلام، شطر صميم من الإسلام، لأنه بعض مفاهيم (الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر) وكل شيء من الإسلام، يجب أن يؤدى كما حدده الإسلام، حتى يصح انتماؤه إليه.. فمن توجه في الصّلاة إلى غير القبلة، وإن خلصت مشاعره لله وحده، ولن يصححها ادعاء: (إن الهدف الأول والأساس من الصّلاة هو توجيه القلب إلى الله تعالى، بهذه الحركات والقراءات والأذكار، ولم يكن تخصيص الكعبة بالاستقبال، إلا للمبالغة في تخليص الاتجاه إلى الله، ومن توجهت مشاعره كلها إلى الله، استغنى عن مواجهة الكعبة بالذات). فلا يصححها هذا التفلسف، لأن الله أراد الصّلاة مع الاتجاه إلى القبلة، وإن كانت شاردة المشاعر، ولا يريد الصّلاة الشاعرة إن كانت غير موجهة إلى القبلة.. ومن حج البيت وسعى بين الصفا والمروة، وأدى جميع مناسكه، إلا أنه طاف منقلباً، لا يكفيه عن الفريضة، وان تفلسف لعلمه بألف كتاب ضخم.. ومن توضأ منكوساً، واغتسل بماء الصابون، وتطهر بالاسبيرتو، لا يصح وضوؤه ولا غسله، ولا طهوره، لأن العمل الإسلامي، يجب أن يؤتى به كما أمر الله سبحانه، وتحريف كل صغيرة يجعل العمل كله عبثاً،

وقد يجعله بدعة وحراماً، إن كان عبادة.

والعمل لتطبيق الإسلام، عمل إسلامي يجب أن تتبع فيه حدود ما أنزل الله ـ حتى يكون مشروعاً يثاب عليه العامل ـ والعمل الحزبي، عمل لم ينزل الله به من سلطان فيكون تشريعاً وحراماً.

وليس هذا الانكار لعملية الحزب، هروباً من كلمة (الحزب) ولا تخوفاً من مفهوم جديد طارىء على الحياة الإسلامية، كتخوف الناس من كل جديد، فترة يستأنسون به من بعد، ولا خشية من (التنظيم) فإننا لا نهرب من الألفاظ، ولا نتخوف من التطورات الجديدة ولا نخشى التنظيم الصحيح، وإنما ننكر استخدام الطريقة الحزبية، في مجال العمل الإسلامي، لأن العمل الحزبي، طريق آخر للعمل، غير الطريق الاسلامي، الذي خططه وصممه الإسلام بنفسه، للمشاريع الإسلامية، ومن حاول العمل للإسلام ولكن أهمل عملاً قرره الإسلام وتبنى عملاً لم يأذن به الله، لا يحق له أن يخلع عليه اسم الإسلام، بل لا بد له من الاعتراف، بأنه تخلى عن الإسلام، ونحن لا نطالبه إلا بعدم التستر باسم الإسلام، حتى لا يوصم بنفسه ديننا النبيل.

وـ إن الأحزاب الإسلامية، تباشر القيادة الإسلامية التي لا يجوز لأحد توليها، إلا بنص صريح من المعصومين ﷺ، بل العمل الحزبي مطلقاً، سواء أكان روحياً أم مادياً، تصدى للقيادة، والإسلام يحرم التصدي للقيادة إلا لمن تشمله النصوص السابقة، بأن يكون نبياً أو وصياً أو مرجعاً، لأن الله تعالى، لم يجعل لإنسان على آخر سلطاناً ولو برضاه، وحرم الاستغلال والتسخير، وعلى هذا الأساس يحرم تولي القيادات الحكومية، بكلتا صورتيها: الديموقراطية النابعة من رضا

الناس، والدكتاتورية المتفرعة من الاستغلال والتسخير، فكيف بالتصدي للقيادة الإسلامية، وعلى خلاف ما قرر الإسلام فانه من اغتصاب الخلافة، الذي وعد الله عليه اشد العذاب.

فالإنسان ـ كما حدده القرآن الكريم ـ مخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فعليه أن يتبع ويطيع سنة الله بدقة وأمانة، فمن مرق عن قيادة (أولي الأمر) الذين خولهم الله سياسة العباد، كان مجرماً يترصده السعير، وإن وقف نفسه على الطاعة والاجتهاد، كما تؤكده النصوص الصادرة عن المعصومين عليهم السلام: (حرام عليكم أن تقولوا بشيء، ما لم تسمعوه منا)، و(... لو أن رجلاً قام ليله، وصام نهاره، وحج دهره، وتصدق بجميع ماله، ولم يعرف ولاية ولي الله، فيكون أعماله بدلالته، فيواليه، ما كان له على الله ثواب)، و(... من دان الله بغير سماعٍ من صادق، فهو كذا، وكذا).

فإذا كانت النار، مصير كل من يتسلل من القيادة الصادقة، وإن فعل كل معروف، فماذا يكون جزاء من خلع الطاعة، وشجب قيادة ولاة الأمر ـ الذين عقد حبل ولائهم بحبل الوتين ـ وأرصد من نفسه قيادة، تناوىء القيادة التي ركزها الله في الأرض للعباد، وركب الشيطان وأسلس له القيادة، حتى يقتحم به المحرمات، ويهتك الحرمات؟

إذن فهيكل الأحزاب الإسلامية هيكل ديموقراطي خالص، وأما نظامها فان كان بعضه أو كله إسلامياً، فلا يؤثر على اللون الديموقراطي لها، لأن من الديموقراطية في صميمها: أن تتاح للأكثرية حرية اختيار النظام، الذي تعمل لتنفيذه، غب فوزها بالحكم، فنظام الحركات الديموقراطية، تتبع إيمان الأكثرية دائماً، فإن كانت الأكثرية مؤمنة

بالإسلام جعلته، مصدر شرعها، ومورداً تستقي منه قوانينها، مع الصقل والتعديل، وإن كانت الأكثرية مؤمنة بالإشتراكية، جعلتها مصدر شرعها، كما أن الحكومات الديموقراطية، لا تخرج عن نطاقها، باختلاف نظمها الاقتصادية... فلون النظام، لا يخرج الحزب عن الديموقراطية، ما دام منضوياً تحت المفاهيم الحزبية العامة.

أترى أن الحزب الديموقراطي الأمريكي، الحاكم في الولايات المتحدة، ينقلب حزباً إسلامياً، وتنقلب معه الحكومة الأمريكية، حكومة إسلامية، لو حرم الخمر، وجعل المجلس التشريعي الأمريكي، الفقه الإسلامي، من المصادر القانونية لها؟..

أو ترى أن (مؤتمر متشرعي العالم) الذي عقد في (لاهاي) كان مؤتمراً إسلامياً، حين قرر: (أن الشريعة الإسلامية، تحمل العناصر الكافية، التي تجعلها صالحة للتطور مع حاجات الزمن)؟..

كلا.. إن ذلك لم يكن، ولن يحدث، ما دامت الصيغة العامة للحركة غير إسلامية، ولا تنفذ الإسلام كله، نصاً وروحاً، في جميع مرافقها، لأن مجرد استقامة تصميمها، أو التقاء بعض موادها مع الإسلام، لا يعبر عن شيء، وإلا فجميع الحركات الفكرية، والسياسية، والاقتصادية، والدينية، تتفق مع الإسلام، في بعض مبادئها، أو أهدافها، أو أساليبها، في الوقت الذي لا يصح اعتبارها إسلامية، لأن التقاءها ليس التقاءً هادفاً يفصح عن حقيقة مشتركة، بل لا يختلف عن تفرقها في عدم الدلالة على شيء، والذي يدل على وحدة حركتين، هو التقاؤهما العام، الذي يكون نابعاً من وحدة الاتجاه، وإلا فالخطوط المتقاطعة تلتقي في بعض النقاط، فهل يكون دليل وحدتها؟..

وحركة الأحزاب الإسلامية، لاتختلف عن تلك، في أنها تأخذ بشطر من الإسلام ـ في مجال التشريع ـ وتهمل شطراً من الإسلام ـ في مجال الحركة العامة ـ فتكون كسائر الحركات، غير إسلامية، وإن تطفلت على الإسلام، وشاءت أن تفرض نفسها على المسلمين.

***

كل هذا، إلى جانب حقيقتين، تبرهنان على أنفسهما في كل حركة حزبية، مهما بلغت من الحيطة والوعي والانتباه:

الأولى: إن الأحزاب حيث تخلق من قادتها فراعنة، تعتبر نفسها، فوق كل المستويات، وكافة الاعتبارات وتعمل لتوفير ثقة الأعضاء عليهم بلا قيد ولا شرط، وتزكية جميع السيئات إن صدرت عنهم، يترفع القادة عن عرض حسابهم على الأعضاء، ويتهيب الأعضاء عن محاسبة قادتهم ـ وإن كانوا قد يعرضون على الأعضاء، أرقاماً مرتبكة، في خطب المؤتمرات، ليقال عنهم، إنهم قادة أمناء، يعرضون حسابهم على الحزب، إلا أنه حيث لا يكون حساباً واعياً شاملاً، يضع النقاط على الحروف ـ يتاح للقادة أن ينفسوا عن أحلامهم الضائعة، وشهواتهم المكبوتة، فيستغلون هذه الغفوة الحزبية، لدس مصالحهم الفردية في أهداف الحزب، ثم يبررونها، بالاستدلال على أنها من مستلزمات النضال الثوري، ومن أدوات التوعية الجماهيرية، وغير هذه الكلمات البراقة الخداعة، ويرددها الأعضاء بلا تفهم أو استجواب، وتنتهي هذه العمليات الانتهازية، بتسخير الحزب، للتوفر على مصالح القادة المترفين النفعيين، الذين كونوا أحزابهم، لثقتهم بأنها أربح الوسائل، للمتاجرة والاكتساب، وأسهل الطرق، للارتفاع إلى مستوى الحكم.

الثانية ـ إن الاحزاب ـ والسرية منها بصورة خاصة ـ تكون شبكة عاملة، لخدمة المصالح الاستعمارية، والحكومات المحلية، لأنها حيث تقدر لحركتها أهدافاً سامية بعيدة، تحتاج لتحقيقها إلى أوفر عدد من المفكرين العاملين، وأكبر قدر ممكن من الأموال، التي تستهلكها في تنشيط حركاتها وتحشيد باعة الضمائر حولها، وأوسع معنونة سياسية، تغذيها حيث تواجه النكسات، التي لا تملك الامكانات الكافية لدرئها، فحيث إنها تشعر بالحاح الحاجة عليها ـ مهما تضخمت مواردها وعناصرها المتفاعلة ـ لاتتردد في الترحيب بهذه الطاقات الحيوية والعناصر النابضة، من أي مصدر استدرت، فهي لا ترد المساعدات مهما قلت أو كثرت.

والحكومات المحلية، حيث تخاف من الأحزاب النامية من جهة، ومن جهة أخرى تشعر بحاجتها إلى القاعدة الشعبية، من أجل التعاون معها في سبيل تحقيق مآربها، والدفاع عن مصالحها، تنتهي إلى الإيمان بأنها تفقد الثقة والاستقرار، إذا لم تستند إلى حركة قاعدية، مفاعلة في الصعيد الشعبي، لتفلسف مشاريعها وإجراءاتها، وتشتبك مع أعدائها، فتبقى هي حاكمة، ومستعلية عن التفلسف والاشتباك، والحكومات المحلية تجد هذه القاعدة الشعبية، في الأحزاب العاملة المختلفة، في كل وطن إقليمي أو قومي، فتشتري ضمائر قادتها بما يتفق الجانبان عليه، وإن أبوا إلا الاستمرار في خططهم الواعية، تطعنها الحكومات المحلية من الخلف، بصورة لا تثير اللجب والضوضاء، لأنها تجد أبداً، في موظفيها العناصر المفكرة العاملة ـ التي تحتاج إليها الأحزاب ـ فتزج في كل حزب عدداً منها، وتحفظهم تحت التوجيه الواعي الدقيق، لينشطوا

في العمل الحزبي، حتى يسيطروا على المراكز الرئيسية فيه، يضربوا قادته الأولين، ويحرفوا اتجاهاته الأصلية، إلى حيث يخدم مصالح الحكومات المحلية، رغم أنه تأسس، لضرب السلطات الحاكمة، واستبدالها بسلطات مثالية.

والحكومات الاستعمارية، حيث تكون أبداً في معركة (تنازع البقاء) مع الحكومات المحلية، التي تريد الاستقلال، وتحاول الحكومات الاستعمارية استهلاكها، تشعر بالخوف من الاحزاب النامية في كل دولة، لأنها إن ساندت حكوماتها تقوى فتستعصي على الاستعمار، على أنها تكون بمثابة جهاز تنبيه وتشويش ضد الخطط الاستعمارية، ومن جهة ثانية تشعر الحكومات الاستعمارية بالحاجة إلى الأحزاب المحلية في كل مكان، لتقوم لها بدور شبكات التجسس والأصابع التي تهدد الحكومات المحلية، بالثورة والفوضى إن لم تستجب لإرادة الاستعمار، فتستدرجها، بطريقة الإغراء المادي أو الانقلاب الداخلي في قياداتها... وبالنتيجة، تتحول الأحزاب التي تكونت ضد التدخلات الاستعمارية، إلى أجهزة لتأصيلها وتعميقها، وفرض الاتجاهات والخطط الاستعمارية الموجهة على الشعب والوطن باسم الوطنية والتحرر..

فأكثر الأحزاب ـ والإسلامية منها بصورة خاصة ـ في البلاد التي تعيش تحت توجيه الاستعمار السافر أو المتستر، تفقد في غالب الأدوار، أهدافها وإرادتها وأصولها، وتنقلب ـ رغم إخلاصها البدائي المباد ـ إلى أجهزة حكومية تربق الشعب بأيديه، وتطعنه من صميمه، أو شبكات استعمارية طيعة، تنفذ رغبات الأجانب بتجرد وتوفر واندفاع، وتؤدي لهم دور «الرتل الخامس»، بلا جزاء ولا شكور.

وقد حققت أحزاب الشرق الأوسط ـ في الفترات الأخيرة ـ مجموعة ملونة من الشواهد على هذه الحقيقة، وقد لقيت زعيماً لحزب إسلامي، يجاهر أعضاء حزبه «إننا في الوقت الحاضر، لا نؤلف إلا حزباً صغيراً محدوداً، والحكومة المحلية القائمة، تحاربنا، فعلينا أن نتعاون مع الاستعمار، حتى نحقق أهدافنا، وعندئذٍ يمكن تغيير موقفنا منه». ولكن الاستعمار ـ فور ما استوفى أغراضه ـ قضى عليه قبل أن يغير موقفه منه...

وأدركت حزباً إسلامياً كبيراً، تبنى الموقف السلبي، من معركة وطنية مصيرية، دارت بين الشعب والاستعمار، بينما كان الحزب يستطيع أن يقول كلمته الدعائية، وكلمته المسلحة، وكان موقفه يبعث على التساؤل والاستنكار، وبقي الموقف غامضاً حتى رأيت في مذكرات «انتوني ايدن» رئيس الوزارة البريطانية: «.. إن (فلان) رئيس حزب (كذا) كان على اتصال دائم بنا، وقد أعجبنا بروحه الطيبة، وتفهمه لقضايا العرب والشرق الأوسط، وكان موقفه من حرب (كذا) موقفاً مشكوراً درأ عنا متاعب كثيرة..» ثم ضرب الاستعمار نفس ذلك الحزب وهذا الرئيس، عندما أحس أن وجودهما عاطل أو ثقيل عليه... ورأيت حزباً إسلامياً، كان في مناشيره ودعواته، يلقي الضوء والتبعات على الاستعمار البريطاني، بينما كانت بلاده ترزح تحت نير الاستعمار الامريكي، ولا ينكر ان الاستعمار البريطاني، كالاستعمار الأمريكي، بشره ومآثره. ولكن الأول لم يكن الخطر الذي يهدد بلاده، بل الثاني ـ الذي سكت عنه ـ كان الخطر الفعلي المباشر، إلا إذا كان الحزب يشعر بأن الاستعمار البريطاني، يشكل خطراً ـ في المنطقة ـ على الاستعمار الأمريكي،

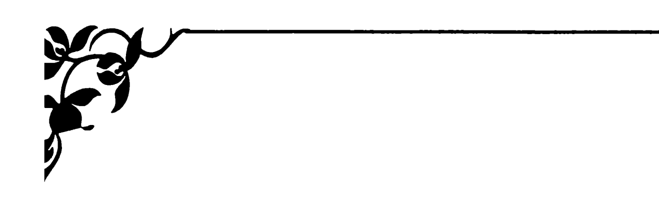
فحاول ضرب الأول لإبقاء الثاني... ورأيت كثيراً من الاحزاب الإسلامية، تعمل بأساليب ملتوية وغير مباشرة ـ في غالب الاحيان ـ لفصل الشعب عن العلماء، وتضعيف رصيدهم ومعنوياتهم، في نفوس الشعب كله، والشباب بصورة خاصة ونحن نعلم أن خطة فصل الشعب عن العلماء، من أخبث خطط الاستعمار.. وأرى بعض الأحزاب الإسلامية، يتبنى الاتجاه الوهابي، مع العلم بأن الاستعمار البريطاني، هو الذي أخرج الاتجاه الوهابي، ونفخ فيه الحياة، لضرب العتبات المقدسة، التي كانت تقوم في حياة المسلمين، بجزء من فلسفة الحج... وتجد الأحزاب الإسلامية، كافة، تتفق على نسف الشعائر الحسينية، والغاء المنبر الحسيني، مع العلم بأنها أقوى جهاز دعائي، قام بدور التغذية الجماهيرية للإسلام. كل ذلك مهما كان قادة الأحزاب بالغين درجة العصمة، حتى لا يسخروا أحزابهم لمجرد المصالح الفردية، وأما أكثر الأحزاب القائمة التي عرفتها أو درستها، فإن قادتها لم يفكروا في تكوين أحزابهم، لولا أنهم حاولوا الارتقاء إلى المناصب الحكومية الرفيعة، فلم يقدروا لشلل في إمكاناتهم، أو وجدوا الطريق أمامهم طويلاً شائكاً، فانصرفوا إلى تكوين الأحزاب، لأنهم وجدوها أقرب الطرق إلى الحكم، وتبنوا المبادىء التي تغذي أحزابهم، لا إيماناً بها، وإنما تسخيراً للمغفلين.

وكل هذا إذا لم يكن القادة ضعفاء، بحيث يتاح للحكومات المحلية والاستعمارية التلاعب بأحزابهم عن طريق شبكات التجسس، وإلا فتغدو أحزابهم مهازل ولعباً كلعب الشطرنج، لضرب الشعب وتأمين مصالح الحكومات المحلية والاستعمارية.

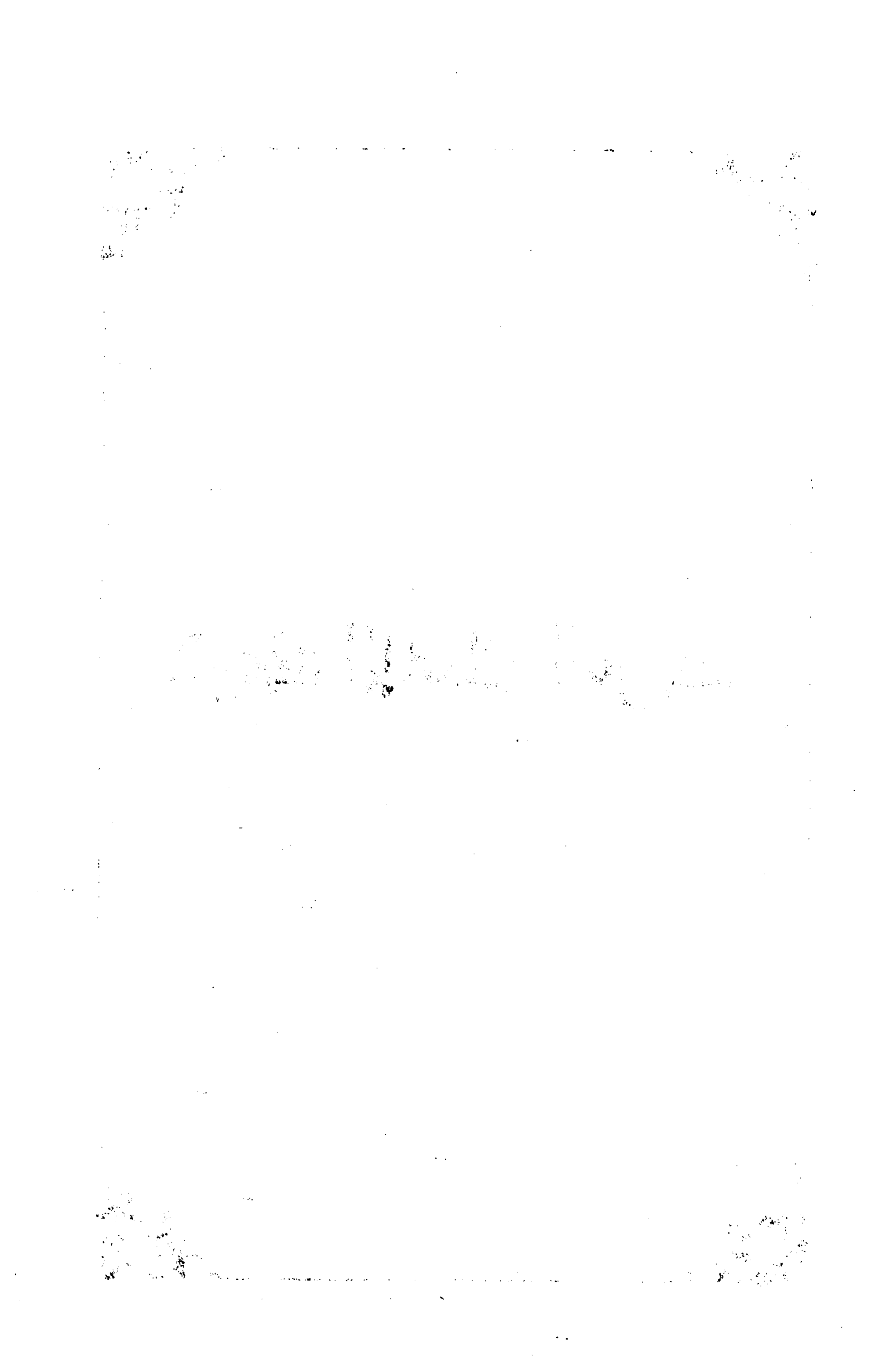
فهذه الأخطاء والأخطار، تدل على أن الحركة الحزبية، بما فيها من سرية والتواء، تكون مأدبة خصبة مفتوحة، لا تسلم من انتهاز الحكومات المحلية، والسلطات الاستعمارية، التي تترصد الحركات الناشئة، لاستغلالها في سبيل تحقيق مآربها وأطماعها.

***

وليس هذا الرأي، من السلبية والانهزامية، في الصراع الملتحم بين الشعب وبين الهدامين، وبين الشعب والاستعمار.. وإنما هو من الموضوعية الواعية، التي تدبر بحساب وتقدر بحساب، دون أن يشلها لجب المعركة، عن التأمل والتفكير، واستنتاج التجارب التي أكدتها الحياة نظرياً وتاريخياً.



حركة الأعمال الفردية



وطبيعة هذه الحركة أنها تبدأ بفردٍ من رجال الأعمال، نتيجة لتمكن الشعور الإسلامي منه، وتوقد الطاقة والحماس فيه، واندفاعه الفكري أو العاطفي، نحو العمل لتظهير الإسلام على الحياة.

ولا نعني بحركة الأعمال الفردية الإسلامية، تلك الحركات المتهافتة، التي يقودها فرد واحد، منذ البداية حتى النهاية، ولكن نعني بها الحركة التي لا تؤمن بالمقاييس والمبادىء الثابتة خارجاً وإنما تجعل الفرد القائد مقياساً ومبدأ، يرتفع فوق كافة المقاييس والمبادىء، بحيث تكون إرادته حاكمة في الحركة، دون أن تستطيع العقائد والأفكار الخارجية نسفها ما دامت ذهنية القائد مؤمنة بصلوحها للحركة، فهي تشمل الحركات التي لا تؤمن بالتنظيم الحزبي، ولا تنضوي تحت القيادة الإسلامية الصحيحة، وإنما تستقي وقودها من نشاط فرد، وإن قادتها مجالس أو لجان أو مؤتمرات كثيرة الصخب والأعضاء، وتكتلت على حسابها جماعات شيدت وجودها العملي على التنظيم وتوزيع الأعمال.

فحركة الأعمال الفردية، وإن لم تخضع لصيغة محدودة ومفهوم خاص مرسوم، كحركة الأحزاب، بل تتطور وتختلف بنياتها وأساليبها،

تلبية للظروف والبيئات، والانفعالات الدافعة إلى تلك الحركة، وتتحكم فيها آراء واتجاهات الشخصية القوية فيها، إلا أن من الممكن، تحديدها بأنها كل حركة تنبعث من الشعور بشذوذ وضع قائم، ووجوب تطويره، سواء أبدأ الشعور بالشذوذ في نفس فرد، ثم تسرب منها إلى نفوس الآخرين، أو تكون الشعور بالشذوذ جماعياً، ولكنه تفاقم وبلغ نضوجه في نفس فرد ثائر، فعبر عن الإرادة المشتركة في نفوس جمهور، وانبرى لتعديل ذلك الوضع الشاذ، واستصرخ أفراداً تناصروا معه، لوضع خطة العلاج، وعملوا على تنفيذها في واقعهم... فهي كل حركة لم يكن لها كيان فكري عقائدي حي، يتفاعل مع الابعاد والاتجاهات العاملة، خارج نطاق الحركة، بحيث تكون مستقلة مبتورة، لا تتشعب معها إرادات أخرى من مصدر واحد.

وعلى ضوء هذا المفهوم العام، لحركة الأعمال الفردية نرى أكثر الانقلابات العسكرية، الناجحة أو الفاشلة، أعمالاً فردية، ونجد حركة «منظمة جيش التحرير الجزائري» حركة عمل فردي، وحتى أن «ثورة غاندي» في الهند، لم تكن إلا عملاً فردياً، كما أن نهضة المسلمين لاستقلال باكستان، لا تعدو عملاً فردياً.

***

ذلك، هو واقع «حركة الأعمال الفردية» ـ التي عاش المسلمون ألواناً من نماذجها، بعد انهيار الحكم الإسلامي ـ وهي لا يمكن أن تخدم واقع الإسلام، وتكسب مرضاة الله سبحانه وتعالى ـ التي يجب أن تكون الهدف الأول والأخير، لكل عمل اسلامي، ودليل صدقه وإخلاصه.

ومهما جهدت لدسّ نفسها في حركة الإسلام، واجهها الرفض

الذاتي، والتاريخي، وصفعها الإنكار يوم الحساب، لأن الحركة الإسلامية، هي التي تكون وليدته وبوحي مباشر منه، وهذه الحركة بعيدة عنه، لجهات، هي:

أـ إن قيادتها، قيادة ارتجالية، لا إسلامية، فلا يقود «حركة الأعمال الفردية» انسان استوعب المؤهلات المشروطة في القائد الإسلامي، الذي لا بد أن يقود كل عمل قيادي اسلامي، وإنما يقودها «فرد معين»، استهدف غرضاً، فصمم خطة، وألب جماعة ليدفعهم نحو تحقيق ذلك الهدف.. أو يقودها «فرد جماعي» ـ مؤلف من مجلس أو لجنة أو مؤتمر ـ استهدف غرضاً فصمم خطة، وألب جماعة، ليدفعهم نحو تحقيق ذلك الهدف، وهو يظن أنه وحده، ضرورة الواقع الإسلامي رغم أن الإسلام لم يخول أيّاً من هذين الفردين، صلاحية القيادة، وإنما اغتصبا القيادة من أصحابها الشرعيين، ولكنهما لم يقدرا على اغتصابها بالسيف والعنف، فاغتصباها بالخداع والإقناع، والجميع في منطق الحقيقة سواء، فالخداع كالسيف، والإقناع كالعنف، لا يجعل الحرام حلالاً، وربما كانت جريمة الإقناع، أبشع من جريمة الإكراه، لأنه يأتي بالجريمة ويزيف ضمير فريسته، حيث يصور له الباطل حقاً، والحق باطلاً. أرأيت لو أن إنسانا أقنع إنسانا آخر، بتعاطي الربا، والقمار، والزنى، والظلم، والخيانة، والقتل، وأكد له ضرورة هذه الأعمال لخدمة الحقيقة والتاريخ والإنسان، هل يكون مبروراً في عمله، أم يكون أنكر وأفظع، ممن أكرهه على اجتراح هذه المحرمات؟؟؟ من الطبيعي أن يكون الأول شراً من الثاني، فالجريمة لا تفقد طبيعتها الشاذة، في الواقع وعند الله، إذا اقترفها الإنسان رغبة وانصياعاً، وتتضاعف إن سول لغيره حسنها، وضرورتها

الملحة، لمعالجة الشذوذ الاجتماعي العام. ومباشرة القيادة، التي لم يأذن الله بها، ردة وجريمة، ولا تنقلب مشروعة إذا زينها الإنسان لنفسه، أو زينها لغيره، ونصب من نفسه أداة لممارستها وفرضها على الناس، وإن اقتنعوا به، وارتضوا إرادته، وكان جميعهم له ظهيراً.

ومجرد إبداع فكرة ـ لا يعلم مدى صحتها أو انحرافها ـ لا يجعل الفرد أولى بالقيادة، من أولي الأمر، الذين عهد الله لبني آدم اتباعهم، حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة، وجعلهم أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأموالهم ثم أكد أن الحق معهم، يدور كيفما داروا، بل إن ارتجال الحلول للأوضاع الشاذة شذوذ أبشع، فعلى العامل في سبيل الاصلاح، أن يتتبع الحلول التي سنّها الإسلام، لا أن يرتجل حلولاً، ما دام الفرد لا يطيق الإحاطة بالأوضاع، بدراستها واستنتاجها ثم معالجتها، إلا من زاويته الخاصة، وعلى ضوء أفكاره وخبراته المحدودة التي لاتسمح له بالتصدي للتصرف في المجتمع...

على أن الذين يحاربون القوانين الوضعية، لأنها من صياغة البشر، لا يحق لهم أن يشاركوا في سن القوانين. والإبداع في مقابل الإسلام نكوص وارتداد عن الإيمان المطلق بأن الإسلام فوق الأفكار البشرية، وإن آلام المجتمع، نتيجة طبيعية لتخليه عن الإسلام، ولا يمكن معالجتها إلا بالعودة إلى الإسلام. وليس للمصلحين الذين يريدون إنقاذ البشرية من القوانين الوضعية، وإرجاعها إلى الإسلام، أن يضيفوا إليها قانوناً وضعيا آخر من عند أنفسهم، بل اللازم أن يتوغلوا في الإسلام أكثر فأكثر، حتى يستطيعوا ارجاع الناس إليه. فالعودة إلى الإسلام، تكون بالمزيد من الإسلام، لا بالمزيد من الابتعاد عن الإسلام.

ب ـ إن طريقتها كيفية، ناتجة من أفكار ذلك الفرد القائد، والإسلام ينكر الطريقة الكيفية في مشاريعه، لأنها تؤدي ـ في غالب أطوارها ـ إلى الشذوذ عن صميم الإسلام، إذ إن شذوذ قيادة حركة الأعمال الفردية وعجز القدرات والكفاءات الفكرية المشروطة في شخص القائد الإسلامي، ينعكس في عجز القيادة عن تنظيم برامج الحركة وفق إرادة الإسلام. فتمضي مستقيمة خطوات البداية، حتى إذا كانت في مفترق الطرق، ولفتها الانتكاسات والاشتباكات الطبيعية في كل حركة حية، شعرت فجأة بالعجز والفراغ، في أزمة الصراع، التي تغلق في وجهها خط الرجعة. فلا تجد إلا أن تتوسل ـ لترميم الثغرات ـ بالآراء الارتجالية، التي توحيها ساعة المعركة، دون أن تستقي جذورها من قاعدة فقهية. ثم توجه المعركة، وفق ذلك الاتجاه الكيفي، الناجم من تلاقح المشيئات الشخصية، والاستنتاجات الوقتية، وتبيعها على الناس باسم الإسلام، في الوقت الذي قد ينكر الإسلام ذلك أشد الإنكار، ويشملها «الإفتاء بالرأي»، و «القياس في الدين»، و «القول بغير علم» وغيرها من المواد، التي ورد التحذير منها، والتوعيد عليها بالنار.

وبهذا العجز الإداري، في قيادة حركة الأعمال الفردية نفسر الظاهرة التي تطبع هذه الحركة، وهي انتهاج الطرق غير المشروعة، وركوب المحرمات الصريحة، للوصول إلى المآرب المطلية باسم الأهداف، والانحراف عن الخطط الصحيحة التي تحدد الحركة قبل انطلاقها، رغم أن قادة حركة الأعمال الفردية يكونون على جانب كبير من الورع والإخلاص في بداية الطريق، ولكن فور ما يتوسطون المعركة، يواجهون العقد والأزمات أكثر من عدد الساعات، في الوقت الذي لا يعرفون

حلولها الصحيحة، ولا يملكون فرصة الدراسة والتجربة، فيلتجئون إلى الكيف والارتجال، للتخلص من المشاكل التي لم يحسبوا حسابها، ولم يتأهبوا لها في بداية الطريق.

والإسلام الذي أحيا المبادىء القائلة: بأن «الغاية لا تبرر الواسطة» و «لا يطاع الله من حيث يعصى»، و«انما يتقبل الله من المتقين» لا يرضى بتبني الطرق غير المشروعة، لتحقيق الأهداف الإسلامية، مهما ألحت بها العظمة والضرورة. وإنما الإسلام الذي أحصى كل شيء، وعرف مثل هذه المواقع والارتباكات، قرر للعمل الإسلامي طرقاً خاصة، ليست فيها حركة الأعمال الفردية. ثم أكد على طريقة، وحذر من سواها، مهما توامضت المباهج، وأعلن: إن من سلك غيرها هلك، وإن أصاب فقد أخطأ، ولا يقبل الله له عملاً، ولا يقيم له يوم القيامة وزناً، وإن عبد الله أكثر من الملائكة الكروبيين.

ج ـ إنها تقترف عملية التجزئة الفاسقة، للوحدة العضوية في الإسلام، حيث تأخذ ببعضه، وتهمل بقية أبعاضه، لأن القيادة متى كانت جامعة لشرائط «المرجعية» تكون داعية للإسلام كله. ومتى تكامل الإسلام في وعي إنسان، حصن نفسه ضد التجزئة والانحلال، لتماسكه الذاتي، وتداعم بعضه لبعض. فلا يشكو بعضه تخمة الاهتمام والتوسع والامتداد، بينما تقاسي أبعاضه الأخرى الجفوة والضمور والإنحسار. بل تسري في جميعه الرعاية والتغذية، بمستوى موقعه ومركزيته من الصيغة المجموعية للإسلام... أما إذا انفرطت الفكرة الشاملة، ولم يتمثل إلا بعضها في وعي إنسان، فإنه يظن أن هذا البعض وحده هو الذي تتلخص فيه إرادة الله تعالى التي يجب أن يخلص لها اهتمام الناس، فيحشد كافة جهوده،

وجهود المتعاونين معه، ويوجهها إلى تحقيق هذا البعض بالذات، بأوفر مظاهر التكبير والتجسيد، في الوقت الذي يهمل بقيته. رغم أن الإسلام لا يتلاقح ولا ينتج، إلا إذا تجسد كلاً متماسكاً يشد بعضه بعضاً، ولا يلغي بعضه إلا ويشل البعض الآخر ـ أيضاً ـ حتى عن انتاج مفعوله الخاص، فيعجز كل عضو عن بلوغ نصابه العادل، واستيفاء كل نصاب حقه المتبادل من التماسك والثقة والنضوج، بل يفرِط أو يفرِّط، فترتبك بنسبته الحياة القائمة عليه.

د ـ إنها تكون متطرفة جانبية، لأن التفكير العامل الموجه للحركة، متى فقد شموله، وارتكز على جانب، وغربت عنه الجوانب الأخرى، يصبح ضيقاً لا يستطيع فحص الحقائق إلا من زاوية حادة. فلا يعطي الشيء نصيبه العادل من التوفر والاهتمام، وإنما يغالي في تقديره، حتى يتجه إلى الاسراف والافراط، فيبلغ التطرف الجائر.

وهذه الجانبية، تدفع حركة الأعمال الفردية، إلى أن تولي عنايتها الواعية، لنقاط في الهامش، وأن تغفل الحقائق المركزية الرئيسية، أو أن تبنى حقيقة كبرى، ثم تعزلها عن بقية الحقائق التي تعايشها، حتى تنقلب إلى كيان ضخم معلق في الفراغ، بحيث يعجز عن العيش في واقع الحياة، فيفقد قيمته الطريقية، كبند من نظام، دون أن يملك قيمة ذاتية، تجعله ضرورة مستقلة لا يستغني عنها الإنسان، فتبقى عالة متطفلة تثقل كاهل المجتمع، وتستنفد قواه أكثر مما تمنحه من وقود.

على أن الحركات الجانبية المتطرفة، إذا كثرت في مجتمع ما، أحدثت التجاذب الاجتماعي الذي ينتهي بالاشتباك، فهذه تجذبه من جانب، وتلك تجذبه من جانب معاكس، وثالثة من جانب ثالث وهذه

بذرة الانشقاق، وأول الانتكاس في كل مجتمع.

هـ ـ إنها تنتهي إلى «عبادة الفرد» الذي يقود الحركة، فتنتزع من صغائر أعماله خيوط العظمة والقداسة، وتبرمها وتنسج منها حوله ستائر سميكة تفصله عن المجتمع وتكبله عن النزول إلى الساحة، لممارسة التجارب المتواضعة القاسية، التي لا تستقيم بدونها حركة هادفة ناتجة، وتجلس أنصاره حواليه للتكبير والتسبيح، حتى تتحول مجموعة عاملة دائبة، إلى حلقة شاغرة تعرف البطالة والتخاذل، رسالة وعملاً، والفخفخة والرياء، مشاركة في التصميم والبناء.

و ـ إنها تكون وقتية محدودة، لأن الحركة القاعدية التي تنبثق من إرادة الإسلام ذاته، تعيش جنباً إلى جنب مع الإسلام، وتتغذى وقوده من حرارة الإسلام واندفاعه الذاتي الاصيل، فكلما رفرف علم للإسلام، وقف إلى جانبه ممثل من تلك الحركة للذود عنه، ولكن الحركة الفردية التي تنطلق من تصورات وآراء فرد ـ وإن اشترك فيها الإسلام ـ تعيش ما دامت تلك التصورات والآراء حية نابضة، وتتبخر الحركة فور ما يخبو ذلك الفرد المحرك، أو تنهار تصوراته وتتبدل آراؤه. وبهذا نفسر بعض التحولات القيادية الشاملة التي تجري في بعض الحركات الفردية، بحيث تحولها إلى شيء مباين تماماً للشيء السابق.

وقد تسري حركة فردية، من فرد إلى تلاميذه، أو تتوارثه أجيال، ولكنها، مهما تعش، تكن محدودة الامد، لأنها لا تحمل في ذاتها عناصر البقاء، ومؤهلات الخلود. والإسلام الذي هو دين الخلود، لا يمكن أن يستند كيانه إلى هذه الحركات الموقوتة، التي تتوالد وتموت مع الناس.

***

ومهما كانت «حركة الأعمال الفردية» متماسكة نشيطة، وقادتها عمالقة بارعون، فانها لا تعدو ـ في واقعها الموضوعي المحايد ـ حركات متوترة فرادى، واندفاعات وقتية لا تتكامل إلا لتخبو، وفي غالب الأحيان متطرفة جانبية، لا تمثل رأي الإسلام حتى في ذلك الجزء الذي تتبناه. والإسلام الذي يرضى به الله ورسوله، مجموع متداعم متجاذب، لا ينفرط منه جزء، ولا يتطرف جزء، فكل مزايدة في هذه الحركات، مزايدة بلا ثمن.

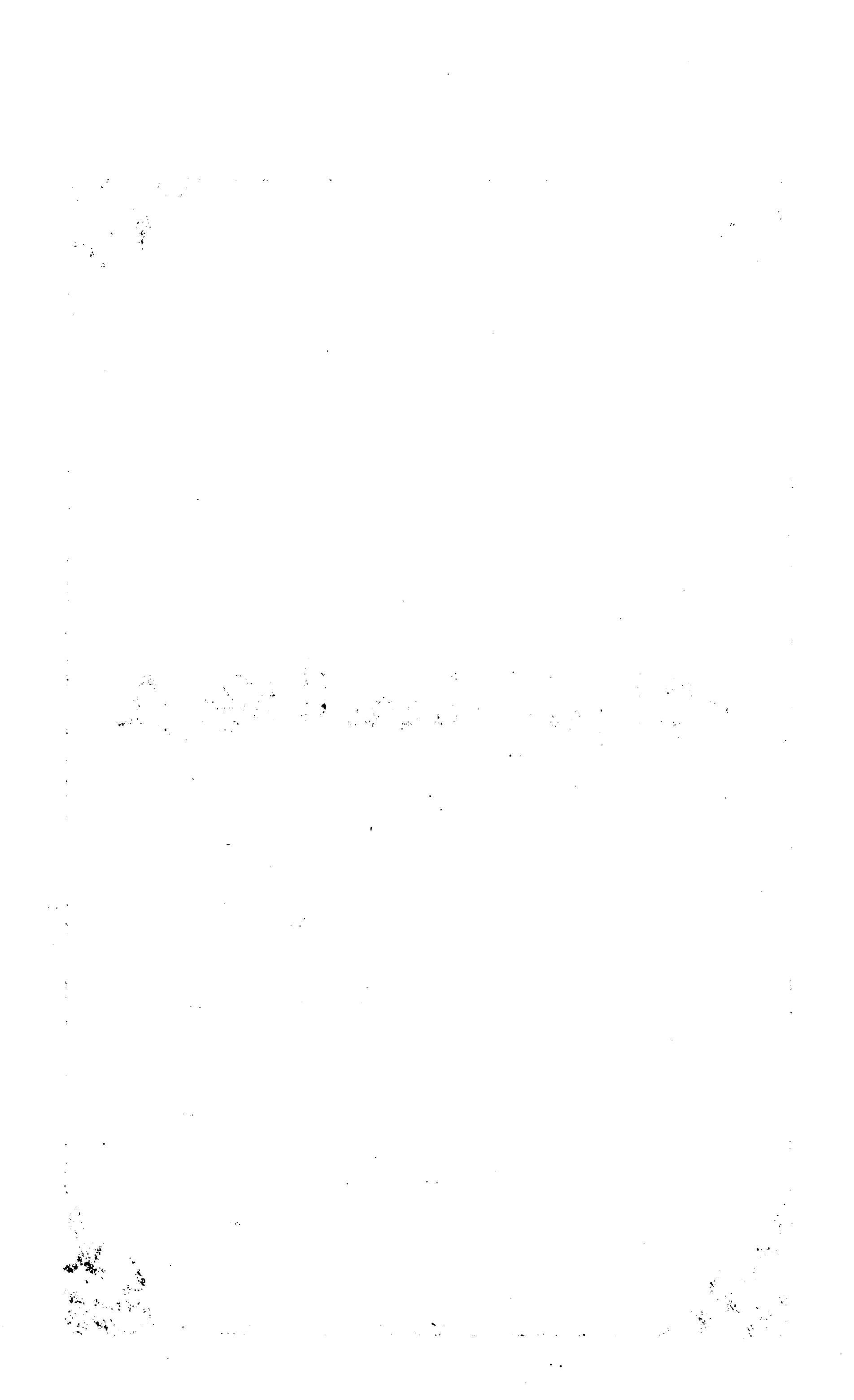
وجميع الجهود التي تنفق في صددها، ليس من شأنها إلا زرع الطريق اللاحب المعبد بالعقبات والألغام.

والنجاحات والمكاسب، التي قد تحرزها «حركة الأعمال الفردية» لا تدل إلا على الصدف العمياء، التي قد تلمع في الأجواء المرتبكة، بلا قواعد ومقاييس، إلا قواعد ومقاييس العوامل الخفية التي لا تخضع للعاملين في حقول الأعمال الفردية. والصدف لا تستحق أن تكون قاعدة للحركات الفكرية العقائدية، التي تستهدف الدنيا والآخرة في كل لفظة وخطوة وتصميم.




حركة الفقهاء المراجع



وصيغة هذه الحركة، أن تتألف «قمة» و«جهاز» و«قاعدة».

فـ «القمة» تتمثل في «المرجع الأعلى» للمسلمين، الذي يكون فقيهاً جامعاً لمؤهلات «المرجع الديني». وإذا بزغ «الأعلم» بين العلماء، أو «الأورع»، أو من تكاملت فيه المؤهلات الأخرى، أوفر من غيره، فهو «المرجع الأعلى»، فإذا تساوى جميع الفقهاء في مؤهلاتهم ـ وهو قليل جداً ـ يكون «المرجع الأعلى» أيهم اختار الناس.

والـ «جهاز» يتألف من «إدارة عليا» يرأسها نفس «المرجع الأعلى» وتنعقد في مقره، وتوزع على أعضائها الأعمال الرئيسية. وهي تؤدي دور «مجلس الوزراء» في إيصال المعلومات إلى «المرجع» ومناقشتها معه، وتلقي الاتجاهات والأوامر منه، ثم تعكس ذلك على الأمة... ومن «أعضاء» يعبّر عنهم بـ «الوكلاء» يوظفون في كافة المناطق، التي يعيش فيها المسلمون. وهم يقومون بدور رؤساء الوحدات الإدارية ـ باختلاف مدى ونوعية الصلاحيات الممنوحة ـ فيقومون بتنظيم شؤون المسلمين، وتنفيذ أوامر القيادة فيها، وجباية الضرائب الإسلامية من المسلمين ـ وفق التعاليم المرسومة لها ـ وتحويلها إلى «المرجع» واسترداد كمية محدودة

من الميزانية العامة، لتوزيعها على الفقراء، وتصريفها في المشاريع الإسلامية ـ التي يوافق عليها المرجع ـ والقيام بعمليات التوجيه والتثقيف للامة، والاشتباك مع عناصر الشر المتطاولة على مقدسات الأمة والإسلام، ورفع المعلومات الكافية عن منطقته ـ في فترات معينة ـ إلى المرجع، واستمداد المساعدات المعنوية منه...

والـ «قاعدة» هي: مجموعة الأمة، التي «تقلد» ذلك «المرجع» وتأخذ عنه دينها، في كافة الأحوال الشخصية والاجتماعية، وتطيع أوامره ونواهيه. وبعملية «التقليد» يرتبط كل مسلم بشخص «المرجع الأعلى» دون أيما وسيط. و«الوكيل» لا يزاحم هذا الارتبا لمباشر لكنه يكو ك لبريد بين نسانين لأ حاطته بـ فتا لمرجع سعية عيه لديني عن فر قاعدته تؤهلانه لأ تصل ليه مر توجيها لمرجع ليذيع ينفذ تكو له تية مستقلة بإ لمرجع.

كا لو جب على كل مسلم لم يبلغ جة لاجتها يقلد لمرجع لأعلى فإ لو جب على جميع لأمة تنضو تحت قيا لمرجع لأعلى تنصهر في حركة لفقها لمر جع فتتوحد لحركة لإسلامية كلها تحت عامة حد هي عامة لمرجع لأعلى تنظيم حد هو لتنظيم لمرجعي تجا حد هو تجا لفقها لمر جع .

هذ لتنظيم لمرجعي يؤ لى

حصانة لأمة من لانشقاقا لد خلية لانفر لى كتل

منحازة، تبعث على اشتباكات دائمة في صميم الأمة.

ب ـ مناعة الأمة من تسلل الاتجاهات الأجنبية عن واقع الإسلام، إلى واقع الأمة في حركاتها التصاعدية التوسعية، وتوتير الإيمان في النفوس باسم الإيمان.

ج ـ صيانة الأمة من تطفل القيادات الكاذبة عليها، واستنزاف امكاناتها لارواء الرغبات الشخصية، وتأييد السلطات المحلية والاستعمارية.

د ـ حفظ وحدة الإسلام، ووحدة الأمة، ووحدة الكلمة الإسلامية، حتى لا يتجزأ الإسلام إلى الف اسلام والأمة إلى ألف أمة، والكلمة الإسلامية إلى ألف كلمة إسلامية.. . فلا تكثر المذاهب، والطوائف، والأحزاب بل يبقى الإسلام واحداً، والأمة واحدة، والكلمة الإسلامية واحدة أبداً.

***

وهذه القيادة، اجدر قيادة وجدت في العالم ـ لو استثنينا قيادة الأنبياء والأئمة عليهم السلام ـ لقيادة أمة من الأمم. فقد توفرت فيها المؤهلات والشروط الاحتياطية حتى أصبحت قيادة مثالية، متوغلة في العبقرية والنبوغ، إلى حيث كان من غير المعتاد تماثلها للوجود، لولا قوة الإسلام، ومعجزته في انتشال الإنسان من حضيض البشر، إلى فوق مستوى سبحات الملائكة، وإلى حيث أصبحت أمينة وقوية إلى أبعد الحدود.

فأما أن «القيادة المرجعية» أمينة، فلأنه لا يشغل أي وظيفة في أي

واحد من مرافق هذه القيادة، إلا رجل «عادل» تمرس على مواصلة «الواجبات» والابتعاد عن المحرمات، حتى نبغت في أعماقه «ملكة: قوة» تعصمه عن اقتراف المنكر، مهما ألح به الإغراء. وقد تألقت هذه الطاقة في المراجع، حتى كادت ان تحلق بهم عن المستوى البشري، وتركت للناس عبراً وأمثالاً. ويكفي ان نعلم، ان الحسين بن روح رحمه الله قال: لو أقذف من أعلى من السماء، خير لي من أن أقول ما لا أعلم.

والقيادات ـ مهما كانت أمينة ـ لا تبلغ هذا المستوى الرفيع، وحتى لو بلغته فانها قد تبلغه صدفة، ولكن لا يشترط في كل موظف من العاملين فيها، بلوغ هذا المستوى سلفاً.

وأما أن «القيادة المرجعية» قوية إلى أبعد الحدود، فلما يلي:

أ ـ إن أقوى التنظيمات العالمية، الذي اتفق عليه الناس جميعاً، وتبنته كافة الدول، وجرب ألوف السنين في جميع أقطار العالم، وعلى كافة القطاعات البشرية، فنجح في ذاته، وأثبت تفوقه على مجموع التنظيمات الأخرى، حيث استطاع هو أن يضربها، ولم تستطع هي أن تضربه ـ إلا فترات غفلة المنظمين التي لا تحمل مغبتها على نفس التنظيم ـ هو التنظيم الحكومي، الذي يحلم باستخدام كل عامل سياسي، وتكون كافة الأحزاب محاولات طريقية، لمجرد السيطرة عليه... وصيغة تنظيم الحكومات الحية والبائدة، تتلخص في تكوين «كتلة هرمية» مؤلفة من «قمة» و«جهاز» و«قاعدة».

فالـ «قمة» تتمثل في رئيس الحكومة: (الملك، أو رئيس الجمهورية).

والـ «جهاز» يتألف من «ادارة عليا» توزع على أعضائها الأعمال الرئيسية للحكومة، هي «هيئة الوزراء»، ومن «أعضاء» يعبر عنهم بـ«الحكام، والمتصرفين، والولاة، ومدراء الشرطة، ورؤساء البلديات...» الذين يرأسون «الوحدات الإدارية» في كافة المناطق الخاضعة للحكومة.

والـ «قاعدة» تشمل مجموع أفراد الشعب، الذي تحدده حدود الدولة.

و«التنظيم المرجعي» أقوى من هذا «التنظيم الحكومي» لأنه يشترك معه في بنود التنظيم، وعضلات الجهاز، فلكل قمة، وجهاز، وقاعدة، ويختلف عنه من جهات:

أولاً ـ إن رئيس الحكومة، يفرض نفسه وقوانينه ومشاريعه على الشعب، بواسطة تلك «الكتلة الهرمية» ـ التي تسمى بـ «الحكومة» ـ والمسلحة بأوسع الطاقات المالية والدعائية والتنفيذية. فرئيس الحكومة يرتبط بالشعب بهذا «الوسيط»، ولا يرتبط الشعب برئيس الحكومة بوسيط طبيعي تلقائي، بحيث لو تخلت الحكومة عن رئيسها يبقى له في الشعب رصيد يكفي لتكوين حكومة جديدة، وإنما تكون الحكومة نفسها رصيد رئيس الحكومة. وتعبيراً عن هذه الحقيقة، نجد أن الرئيس الذي تنتهي مدة رئاسته تقل قيمته الشعبية عن حاكم في الوظيفة، فلا قيمة للرئيس، ولا لأي شيء في انقياد الناس للحكومة، وإنما القيمة كلها للسلاح الذي يؤيد الحكومة.

بينما يكون «المرجع الاعلى» للمسلمين، رجلاً رشحته مؤهلاته لهذا

المقام، وازدلف حوله كل فرد من المسلمين، لا كرهاً، بل إيماناً وثقة بشخصه. وله «إدارة منظمة»، ولكن غير مسلحة إلا بالطاقات المعنوية والكفاءات الدينية ـ وإن كانت لا تأبى عن استخدام السلطات الزمنية، لتولي القيادة الحكومية للامة، إن أتيحت لها، غير أن وجودها الفعلي أعزل لا يلتجىء إلى العنف ـ وإنما تكونت لتكون مجرد أداة رابطة بين المسلمين و«المرجع»، حتى أن المسلمين يطيعون افراد هذه الإدارة، لأنها تعبر عن المرجع لا خوفاً منها أو ثقة بها، بحيث لا يوجد رصيد شعبي لهذه الادارة، وإنما الرصيد كله لشخص «المرجع»، حتى إن تلك الإدارة لو تخلت ـ بكاملها ـ عن «المرجع» لا ينهار أي جانب من شعبيته، وإنما يملك أن يؤلف إدارة أخرى. وفي أي لحظة شاء يستطيع الغاء كافة الإدارة، وتنظيم ادارة جديدة دون أن يحتاج في تنفيذ هذه الإرادة إلا إبلاغها إلى المسلمين، ومن غير أن يتأزم عليه الموقف، بصورة تغضها إطلاقة واحدة.

ومن هنا يظهر التباين الصارخ، بين طبيعة «التنظيم الحكومي» الذي يستند في وجوده وبقائه إلى الطاقات المادية ـ المتمثلة بأوفر مظاهرها في السلاح والمال ـ بحيث لو تخلت عنه يتبخر في اللحظات الأولى... وطبيعة «التنظيم المرجعي» الذي يستند في وجوده وبقائه إلى الطاقات المعنوية ـ المتمثلة بأوفر مظاهرها في العلم والعدالة ـ بحيث لو ايدته الطاقات المادية، أو تخلت عنه، أو تظاهرت عليه، لا يزداد إلا قوة ورسوخاً. فطبيعة الأول، طبيعة التسلط والعنف والارغام، وطبيعة الثاني، طبيعة الإيمان والثقة والإخلاص.

ومن هنا يظهر ـ أيضاً ـ التباين الصاروخ بين قوة التنظيمين، فقوة

«التنظيم الحكومي» أجنبية طارئة، وليست له ـ في واقع الاجتماع ـ وإنما هي قوة السلاح والمال، اللذين احتمى بهما «التنظيم الحكومي»... وقوة «التنظيم المرجعي» قوة اصيلة ذاتية، نابعة من صميم طاقاته وكفاءاته.

ثانياً ـ ان رئيس الحكومة، خادم قد استوظفه الشعب، لانجاز أعمال مرسومة، لقاء راتب محدود، فيعتبر خائناً لو حاذ عن وظائفه قيد شعرة، ولو كان هذا التخلف نابعاً عن عقيدته الدينية أو السياسية، ما دام الشعب لم يوافق عليه بواسطة «أكثرية البرلمان»، فهو مستخدم محدود، له عمل خاص، وراتب معين، ومدة معدودة، يخدم سيده المطاع، وهو الشعب ـ الذي هو مصدر السلطات ـ وفي وسع سيده أن يبدل عمله ـ في أي لحظة شاء ـ أو يرفضه نهائياً، فهو لا يختلف ـ في منطق النظام والشعب ـ عن موظف البلدية، في كافة الإعتبارات، وإن تفضل عليه بنوعية الخدمة، وكمية الراتب.. وكذلك كافة الموظفين في مختلف مرافق الحكومة والحكومة كلها، لأن في صلاحية الشعب، تطوير نوعية الحكومة وإلغاءها لتأليف حكومة تناقضها في كل شيء...

بينما يكون «المرجع الأعلى» سيد الأمة، لا خادمها، ويكون الموجه لإرادة الأمة، ولا يتوجه بإرادتها، ولا يكون من صلاحية الأمة تبديل عمل «المرجع»، ولا رفضه نهائياً ـ ما لم يوجد أجدر منه بالقيادة الإسلامية ـ ولا يعمل «المرجع» لقاء راتب دنيوي، لأن الأمة ـ في منطق الإسلام، الذي ينطلق منه المرجع ـ ليست مصدر السلطات، بل الله سبحانه وتعالى هو مصدر السلطات، و«المرجع» وسيط بين الله والأمة، لايصال ارادته تعالى إليها. وعلى الأمة أن تطيع الله بواسطة «المرجع»، لا ان تطاع بواسطة «المرجع». وراتب «المرجع» تلك الجنة التي عرضها

السماوات والأرض، وليس المال الذي يتقاضاه من الأمة بعنوان «الاخماس» و«الزكوات»، وإنما «الاخماس» للإمام وللفقراء من ذرية رسول الله كما تفصلها الآية الكريمة ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، و«الزكوات» للمشاريع العامة، ولفقراء الأمة، كما يشرحها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وشخص «المرجع» ان كان غنياً يحرم عليه استهلاك شيء من هذه الموارد في شؤونه الخاصة وان لم يكن غنياً يجوز له الانفاق منها على نفسه بصفته مسلماً، لا بصفته مرجعاً، وأما ازاء «مرجعيته» فلا يستوفي شيئاً أبداً.

ويبدو ـ جلياً ـ مدى الاختلاف، بين طبيعة «شخصية رئيس الحكومة» ـ في نظر القوانين الوضعية ـ وبين طبيعة «شخصية المرجع الاعلى» ـ في نظر الإسلام.

ثالثاً ـ ان افراد الشعب لا يرتبطون بـ «رئيس الحكومة» مباشرة، وإنما يرتبطون بمصالحهم فقط، ويريدون «الحكومة» لتمكينهم من مصالحهم، فاذا عاكس «رئيس الحكومة» مصالحهم، أو عاكست «الحكومة» ذاتها مصالحهم، التجأوا إلى التخلص منه أو منها، بالطرق الديموقراطية أو الثورات المسلحة، لأن الـ «رئيس» والـ «حكومة» ليسا من الاهداف الموضوعية للشعب، وإنما هما من الوسائل الطريقية، اما الاهداف الذاتية الاصيلة فهي المصالح الفردية.

في الوقت الذي يرتبط جميع أفراد الأمة بشخص «المرجع الاعلى» لأنه الطريق الوحيد الذي يمكنهم من أهدافهم الدينية، ولا يتمكنون منها

بأنفسهم ـ ما داموا ليسوا بمجتهدين ـ فيكون وجوده رباطاً يضم جماهير المسلمين بتقليده، ويجعلهم كتلة موحدة لا تتسلل إلى واقعها الانشقاقات. على ان من الاهداف الدينية التي يثيب عليها الإسلام، هو تعظيم «شخص القائد الديني» فينخرط بنفسه في المقدسات، والشعائر التي انزل الله فيها: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾.

رابعاً ـ إن «شخصية رئيس الحكومة» شخصية روتينية جافة، لا تستطيع الانطلاق عن حدودها الحديدية الجامدة، إلى الحدود الإنسانية الطرية النامية، فـ «رئيس الحكومة» لا يحكم في خارج حدودها، ولا على أي انسان من غير شعبة، إذ ليس من الممكن، أن يحكم «رئيس» على ملايين الاميال من الاراضي، وملايين الأفراد من الناس، ثم لا يمتد إلى الوف من الناس خارج حدود أراضيه، إلا إذا كان بالغاً أبعد حدود التحجر والروتينية، التي ترفض التحرك والامتداد.

في الحين الذي نجد «شخصية المرجع الاعلى» لا تتزمت بحدود ولا قيود، وانما تزحف متوثبة، عبر كافة النطاقات والاعتبارات التي تكبل الأفراد والحركات، وترفض كل ما يحاول تجميد الانطلاقات التوسعية. وهذا يصور مدى توفر الإنسانية الامتدادية، على جميع الأبعاد والاتجاهات المرجعية، وكل مرافق تفكير و«شخصية المرجع الاعلى». على هذا الضوء، لم يبزغ في الإسلام ـ وخاصة في مدرسة التشيع ـ مرجع قطري أو اقليمي أو قومي، على طراز الـ «رئيس الحكومي» وحتى لا على نوع المراجع الدينيين في الديانات البوذية وإليهودية والمسيحية، وإنما هو نوع توسعي وثاب، ينسجم مع ما في الإسلام من توسعية وثابة.

ب ـ إن أقوى القيادات المبدئية، هي القيادة التي تتوفر فيها أوسع

المؤهلات التي أبرزت مبدأها إلى الوجود.

ومن أهم العناصر التي ساهمت في تصميم الإسلام ـ كدين خالد ـ ثم في تخريجه إلى الوجود، طاقتا «العلم» و«العدالة». وقد اشترط أقصى الكميات الممكنة منهما في جميع أعضاء «حركة المراجع» فينسق «جهاز» هذه «الحركة» من «الفقهاء العدول» الذين درسوا الإسلام، واتقنوا اجتماعياته بصورة تطبيقية فائقة، حتى لا يكون في حاضرتهم أفقه منهم ـ كما يشترط في «القاضي» الذي هو نفس «الوكيل» في لغة الحركة اليوم ـ. وتشكل «قمة» هذه الحركة، من رجل تبلغ به «طاقة العلم» إلى حيث يكون اعلم الناس بالاسلام، وأوسعهم وعياً للدين والاجتماع، وتبلغ به «طاقة العدالة» إلى حيث تنطبق عليه البنود التي نص عليها في تصريحه، الموشح بتوقيعه المبارك: «... من كان من الفقهاء، صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه».

فلا يشغل مرافق هذه «القيادة الحركية» سوى «الفقهاء العدول» الذين هم قمم البشرية، في المواهب الفكرية والجدارات النفسية، ولا يحق لأحد تولي «تنظيمهم القيادي الاعلى» عدا أعلمهم وأورعهم، الذي يكون أعلى القمم البشرية الحية، في طاقاته الفكرية، وامكاناته النفسية.

ومثل هذه الصفوة المنتخبة، يجدر باستخلاف الأنبياء والائمة عليهم السلام، الذين تشترط فيهم الاحاطة بجميع علوم الحياة، وكل ما سبق أو يأتي إلى يوم الحساب، والعصمة حتى عن فكرة الذنب والسهو والنسيان.

وهذا النوع من «القيادة العلمية العدالية» ينسجم مع سجية الإسلام، المفطورة بالعلم والعدالة، لأن الدين الذي يتفوق على كل مبدأ ودين،

بالعلم والعدالة، لا يمكن أن يغفلهما في قيادته، التي تتولى توجيه حركاته حتى الابد، فيتفق فيها مع ابخس المبادىء والاديان، رغم أن القيادة ابداً، مركز الثقل الذي يتمثل في المبدأ، والمصدر الذي تنطلق منه امتداداته وتعديلاته، وهي أروع نموذج عملي يتجسد فيه المبدأ، بكافة مؤهلاته وامكاناته.

ج ـ إن أقوى القيادات المبدئية، هي القيادة التي يختارها المبدأ، في رأي الخاضعين، وتكون عليه «الرقابة الجماعية» الساهرة في قلوب كافة أنصارها، حتى لا يتدخل فيها الـ «فرض»، بل تكون ادارتها بمقدار رصيدها...

وقد شاءت الفلسفة الديموقراطية، تجسيد هذه القيادة، في انطلاق القيادة من «إرادة الأكثرية» ولكن هذه الفلسفة، لم تنتبه إلى انها «تفرض» قيادة «الأكثرية» الناخبة، على «الاقلية» الرافضة، ولم تمنع من شراء الأصوات بالاموال والوجاهات، وبقية المغريات، ولم ترسم خطة لاسقاط هذه القيادة ـ التي اختارتها الأكثرية يوماً ما ـ إذا انحرفت عن نهجها السابق ـ، أو تطورت إرادة الأكثرية، بتأثر العوامل المتفاعلة في الاجواء السياسية. وانما تركتها «مفروضة» على الأكثرية والاقلية، حتى يتم امدها الذي اقتنعوا بها أولاً، فلم تترك للشعب خط الرجعة.

في الوقت الذي اتخذ الإسلام كافة التدابير اللازمة في شأن القيادة، فترك للناس حرية النظر في توفر شروط القيادة في هذا الرجل أو عدم توفرها، ثم ترك لكل فرد حرية الانضواء تحت قيادة هذا الرجل الذي اختارته الأكثرية، أو الانضواء تحت قيادة رجل آخر تكون الشروط فيه أوفر منه. وترك لكل فرد ـ أيضاً ـ حرية التسلل من تحت قيادته، في

اللحظة التي يجد فيها ارتداداً عن نهج الإسلام... وحرم على الناس «الانتخاب الكيفي» للقائد، فحرية انتخاب القائد ـ في رأي الإسلام ـ هي حرية النظر في توفر شروط القيادة في هذا الرجل أو ذاك، ومن ثم يحرم تدخل الاغراء في اكتساب الأصوات بل يجب أن يكون انتخابه متحرراً من العوامل التي تتدخل بين المرء وقلبه، ووفق إرادة الإسلام.

تلك جوانب محدودة، من مظاهر القوة في «حركة الفقهاء المراجع»، وإلا فإنها قطعة من كيان الإسلام، الذي لا يحصي مظاهر تفوقاته العدد. فقد تضافرت التوفيرات الاحتياطية على تصميم هذه الحركة، حتى كادت تسمو بها عن المناهج التطبيقية، التي تعيش في مستوى المسؤولية البشرية وتعايش واقع الناس والحياة، لتحشرها في فصيلة الاساطير النموذجية المتوغلة في المثالية، التي يبدعها خيال شاعر خصب، ليبعد من بعيد، ويظل حلم الإنسان الصاعد، لكي لا ينكل عن المسير. ولكن عبقرية الإسلام، كما استطاعت تصميمها وتلوينها في ارحاب الفكر، استطاعت ايضاً تجسيدها في واقع الحياة، واقامتها منذ غيبة الامام المنتظر، حتى اليوم.

***

اذن:

فالمسلم الذي يشعر بالاخطار المحدقة، التي تهدد مستقبل الأمة والإسلام، على الصعيدين: السياسي والعقائدي، ويملك في طاقاته، الكفاءة الجديرة بالانجاز والانتاج، للمشاركة في انقاذ الأمة والإسلام، أو ابعاد الاخطار عنهما ولو إلى حين، ويحاول العمل، ويبحث عن العلاج، تبرز أمامه هذه الحلول الثلاثة:

١ـ حركة الأحزاب الإسلامية.

٢ـ حركة الأعمال الفردية.

٣ـ حركة الفقهاء المراجع.

فيواجه استفهاماً تجب الاجابة عليه، قبل الانضمام إلى احداها، وهو:

أي هذه الحركات حركة الإسلام، وأيها متطفلة عليه؟

وما دمنا نؤمن بأن الإسلام دين كامل، أحصى مشاكل البشرية وأجاب عليها. وهذا السؤال يشكل مشكلة بشرية، ففي الإسلام الاجابة عنها، فلنبحث عن تلك الاجابة:

لقد رأينا من خلال الصفحات السابقة، توقيع الامام المنتظر ـ عندما سئل عن تكليف المسلمين في مدة غيبته ـ القائل: «... وأما الحوادث الواقعة، فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا، فانهم حجتي عليكم، وانا حجة الله عليهم». ورأينا نص الإمام الصادق، الذي يحدد فيه الشروط التي يجب توفرها في شخص المرجع، حيث يقول: «وأما من كان من الفقهاء، صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه...». وعرفنا أن سيرة المسلمين، منذ اليوم الذي غاب فيه الإمام المنتظر عن المجتمع الإسلامي، كانت متابعة الفقهاء الجامعين لشرائط التقليد. ففهمنا، أن «حركة الفقهاء المراجع» هي الحركة التي تستند إلى قاعدة فقهية، هي النصوص السابقة، وقاعدة سيرية، هي اتفاق المسلمين عليها أكثر من ألف عام، فهي الحركة الإسلامية الأصيلة، دون «حركة الأحزاب الإسلامية» ودون «حركة الأعمال الفردية».

على أنا رأينا الإيرادات الشرعية، الموجهة إلى «حركة الأحزاب الإسلامية» و «حركة الأعمال الفردية»، وتصفحنا بعض عناصر القوة، في «حركة الفقهاء المراجع» فهي الحركة الجديرة بالقيادة الحاضرة، دونهما...

إضافة على أنا لو سألنا أنفسنا:

١ـ هل الحركة الفاقهة حق، أم الحركة الجهلاء؟

٢ـ هل الحركة العادلة حق، أم الحركة الفاسقة؟

لم نجد الجواب، إلا أن الحركة الفاقهة العادلة حق، دون الحركة الفاسقة الجهلاء. ونحن نرى أن الفقه والعدالة، من الشروط الأساسية، في «حركة الفقهاء المراجع» وليسا من الشروط الأساسية أو غير الأساسية في «حركة الأحزاب الإسلامية» وفي «حركة الأعمال الفردية» فالأولى حق، دونهما.

فنستنتج ـ من جميع ذلك ـ ما يلي:

١ـ إن الحركات العاملة التي تحاول قيادة الأمة، منذ انهيار الحكم الإسلامي تتلخص في: «حركة الأحزاب الإسلامية» و«حركة الأعمال الفردية» و«حركة الفقهاء المراجع».

٢ـ ان الحركة النابعة من صميم الإسلام ذاته، هي «حركة الفقهاء المراجع». وان «حركة الأحزاب الإسلامية» حركة غريبة أوحى بها الاستعمار، أما «حركة الأعمال الفردية» فهي حركة ارتجالية، أوحى بها الاندفاع العاطفي الكيفي، فهما اجنبيتان عن واقع الإسلام، ومتطفلتان عليه وإن تسترتا باسمه وحملتا شعاراته.

ومتى تأكدنا من الحركة الإسلامية الصحيحة، عرفنا علاج «المشكلة الإسلامية الكبرى» والجواب عن السؤال السابق:

ما هو العلاج للمشكلة الإسلامية الكبرى؟..

فالعلاج هو: ترميم العجز الذريع، الذي حدث في واقع الأمة، بفقد العناصر الأربعة الأخيرة، من عناصر النهضة الجذرية للامة، عن طريق «حركة الفقهاء المراجع»..

أما الإجابة على الأسئلة التالية:

ـ من أين نبدأ؟

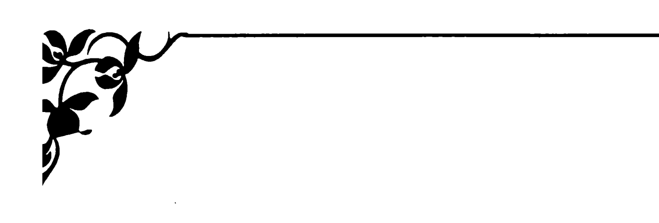
ـ وماذا نعمل؟

ـ ومتى؟

ـ وأين؟..

وألف سؤال وسؤال، فليس علينا الآن، التعجيل بالإجابة عليها، وإنما علينا الآن، بدءاً وقبل كل شيء، أن نندمج في «حركة الفقهاء المراجع» ثم هي الكفيلة ـ بعد ذلك ـ بالاجابة على هذه الأسئلة، وألوف الأسئلة التي تستجوبنا في منعطفات الطريق. فواجبنا الوقتي المباشر أن لا نشتبك ونحن على مفترق الطرق، وأن لا نسلخ أدواراً من المعركة على مفترق الطرق، بل اللازم أن ننحاز إلى حركة الإسلام نفسه، لنثاب إن نجحنا، ولا نعاقب أن فشلنا. وان نتخلص من الحركات المتناقضة والاشتباكات الخرقاء، التي ملأت الجو الإسلامي بالتشنجات، وأبعدت الإسلام عن التطبيق، لأن الإسلام لن ينطبع على أبعاد الحياة، ولن

يرتسم على أعماقها وآفاقها، بالحركات المتطرفة، التي تعزل صميم الإسلام عن واقعها، وتعبد نفسها من وراء ستاره. فالحق لا يتبرعم عن الباطل، والنفاق لا يتفتح عن الإخلاص، والانشقاق لا ينتج الوحدة. وإنما يمكن إعادة الإسلام إلى الحياة، وبناء شخصية الأمة، بحركة تؤمن بالإسلام في ذاتها أكثر منه في هدفها، وتطبقة ـ حرفياً ـ على مراحلها قبل أن تحاول تطبيقه على الآخرين، ولا تمارس إسلاماً يرفعها إلى الحكم للتربع على الكراسي الوثيرة، بل اسلاماً يبلغها إلى الحكم لكسب الجنة ومرضاة الله، ولا تهدف إسلاماً تمتص به دماء الشعوب لتعبئه في كؤوس الجماجم، وإنما إسلاماً يشقى به الحكام، لتسعد به الشعوب. وهذه الحركة ليست الأحزاب التي يتفلسف لها المتنطسون الفارغون، ولا التي نرتجلها بخبراتنا الضحلة الهزيلة، وإنما هي التي صممها الإسلام نفسه، ونص عليها المعصومون عليهم السلام. وقد رأينا أن النصوص الشرعية، تعين «حركة الفقهاء المراجع» لقيادة الأمة، فترة غيبة الامام المهدي المنتظر، عجل الله تعالى فرجه.



ترميم النواقص

... فالآن، وقد وفقنا في معرفة ان الحركة الجديرة بقيادة الأمة، لمعالجة «المشكلة الإسلامية المعاصرة»، ـ المنتهية إلى «مشكلة الكفر والإسلام» ـ هي «حركة الفقهاء المراجع»... وعرفنا أن انتكاسة الأمة قد نتجت عن عجز العناصر الأربعة الأخيرة، من «عناصر النهضة الجديدة للامة»، وهي: وعي الأمة لذلك المبدأ وتلك القيادة، وايمانها المطلق بهما، وثقتها بنفسها، وتنفيذ الأمة لذلك المبدأ ـ في واقعها ـ بإيحاء تلك القيادة...

فقد غدا واجبنا الفوري المباشر القيام بعمل إيجابي حاسم، ينتزع مصيرنا من بين الأنياب والمخالب. ولن يكون ذلك العمل المصيري، إلا ما يرمم النواقص في عناصر نهضتنا الجذرية، وأولها: وعي الأمة لمبدئها وقيادتها. وحيث إن عملية التوعية مشكلة عارمة تنشطر منها انشقاقات بعيدة المدى، كان علينا أن لا ننهض بتنفيذ عملية التوعية، إلا بعد توفر القيادة الصحيحة، فيختصر واجبنا الفعلي المباشر، في القيام بجزء من عملية التوعية، وهو التوعية القيادية للامة. وذلك باستعراض الحركات القيادية الثلاث ـ المتصدية للتحكم في مصير الأمة ـ والقاء ضوء النصوص الإسلامية عليها جميعاً، لتمييز القيادة الإسلامية الصحيحة ـ

المتمثلة في حركة الفقهاء المراجع ـ وتعرية الحركات المتطفلة على الأمة باسم الإسلام... وفور ما تنجح الأمة في تصفية القيادات المحسوبة على الإسلام، وصهر الإمكانات العقائدية ـ المستغلة الآن من قبل اتجاهات غير مشروعة ـ في القيادة الصحيحة، تتلخص الإرادة الحاكمة في «مرجع»... وعندها يشعر بالقوة الكافية لإنجاز عمل جماهيري مصيري، ويشعر بالمسؤولية الجماهيرية المصيرية... وفورها يبادر أولاً ـ بنفسه وبمعونة العاملين في الحقول الإسلامية ـ إلى تتميم الجزء الآخر، من عملية التوعية، وهو التوعية المبدئية للأمة.

فيتكامل ـ في واقع الأمة ـ العنصر الثالث من «عناصر النهضة الجذرية للامة» وهو: وعي الأمة لذلك المبدأ أو تلك القيادة.

ومتى توفر ـ في واقع أمة ـ مبدأ شامل صحيح، وقيادة حكيمة صحيحة، ووعتهما تلك الأمة وعياً جماعياً، حصل في أعماقها ـ بصورة تلقائية ـ العنصر الرابع، وهو: إيمانها المطلق بهما.

وحينما تتلاقح تلك العناصر الأربعة، تولد العنصر الخامس، وهو: ثقة الأمة بنفسها، كأمة تستجمع مؤهلات النهوض المستقل.

وبعدها لا تبقى أمام الأمة، سوى أن تخطو الخطوة الحاسمة الأخيرة، لتحقيق العنصر السادس، وهو: تنفيذ الأمة، لذلك المبدأ ـ في واقعها ـ بايحاء تلك القيادة...

وقد تكون الخطوة الأخيرة، تلقائية دافعة، لا تكبحها السدود والمحاولات، ولا تلجمها العراقيل التي تزرعها معسكرات الكفر في مجاريها الوعرة، لأنه إذا تكاملت عوامل أي شيء في أمة، فإن العقبات

لن تستطيع تأجيل ميلاده إلا ريثما تتجمع طاقاتها الثائرة، تعبئة لانفجار مبيد، يكشف عنها الحواجز، وينفض عما حولها الزوائد والأثقال.

وعندها تنطلق الأمة، في طريقها المعبد الوسط، الذي سارت عليه أكثر من ألف عام، بلا تناقض أو عثار.

وإذا تضافرت الجهود العاملة المخلصة اليوم، للسير وفق ما رأينا، أمكن تجديد كيان الأمة، في مدى ربع قرن... وان تبعثرت في خططها الشتيتة المتطاحنة ـ كما هي اليوم ـ فلا تقتصر جنايتها على أنها تهدر مجدها الغارب، ولن تستطيع استعادة ذلك المجد ولو في مدى ألف عام، وإنما تتحمل تبعة تأجيل ميلاد الكيان الإسلامي المنشود، وتمكين الخطط الاستعمارية الهدامة، من الواقع الإسلامي المنكود.



خاتمة



... وفي الآونة الأخيرة، وبعد ما تطور الوعي الإسلامي، إلى صيغته الحاضرة، وتطور الوعي الاستعماري المعاكس له، جعلت تحوم شكوك وشبهات حول «حركة الفقهاء المراجع» وجدارتها بقيادة الأمة... وإن وجدت استجوابات بريئة، في هذه المجموعة الضخمة، فإن أكثرها مكابرة لئيمة، تنطلق من أبواق الاستعمار والحركات المنحرفة، لضرب حركة الإسلام. ولو كانت مخلصة محايدة، لكان عليها أن تتوجه إلى الفقهاء المراجع أنفسهم، أو إلى المفكرين الواعين للواقع المعاصر، لتتفاهم معهم بحرية بناءة، فتجد الأجوبة المقنعة، أو تصحح الأخطاء. ولكنها لا تبحث عن الجواب، ولا تروم الإصلاح، وإنما تهدف إشاعة الذبذبة وإدامة التناقض في واقع الأمة. فتأخذ مجراها إلى أندية الشباب الغرير، والأوساط العميلة والمستغلة، لتأكيد عملية «الفصل بين الشعب والعلماء». فتتشربها حركات، وتبني نفسها عليها أحزاب، وتلوكها ألسنة وترددها أبواق، تحسب أنها لا تجابه بجواب، في الوقت الذي تكون أوهى من أن يجرد لها جواب. ولكنا نسرد بعضها لننشر النور على جانب من التهويشات التي تثيرها الجهات المنحرفة، لطمس العلماء، كتتميم للبحث حول خطى الانحراف والاعتدال.

فإليك هذه البنود من التشكيكات، التي تحتدم وتفرض نفسها على كل مجال، ودارت بيني وبين أكثر من حركة وأكثر من شاب:

١ـ لماذا لا يعمل العلماء للإسلام؟..

ج ـ من ذا يقول: إن العلماء لا يعملون للإسلام؟ ومتى وجد عالم نكل عن العمل الجاد للإسلام؟ ومن هو ذلك العالم، الذي رفض العمل مؤقتاً، أو حصل على إجازة طويلة أو قصيرة، يتفرغ فيها لنفسه وحوائجها والتعمق في رغباتها؟ وأين كان عالم يعيش السهرات المقمرة على (اليخت)، أو يحيي المسارح والرقصات والضحكات الرقيعة، أو يستقبل تفتحات الصباح بالتزحلق على الجليد، ويودع أشعة الأصيل بالتزلج، ويعرض جسمه للشمس على الشاطىء اللازوردي، ويبارح فترات الكسل والخمول مسترخياً في (اللوج) أو على (البلاج)، ويغازل موجات البحيرة، ويخوض المباريات الخفيفة، ويدمن الهزل، أو يرتكب أي واحد من (التفريحات) التي يحياها كل من يحسبه الناس سياسياً أو عاملاً أو مفكراً.

كلا... إن العلماء لا يمارسون أي شيء من هذه المهازل، وحتى لا يستجيبون لأكثر حاجاتهم الخاصة، بل يعيشون عيشة منكفئة قاسية، للتوفر على العمل الجاد الدائب، طوال حياتهم، بلا فتور، في سبيل الإسلام.

***

٢ـ صحيح.. إن العلماء لا يزاولون السهرات والألعاب والبطالات، التي تلون حياة رجال اليوم، غير أنهم يهزلون ويعملون، فيحركون عجلة

الحياة إلى الأمام، ولكن العلماء لا يهزلون ولا يعملون، وإنما هم زهاد قد طلقوا الحياة ثلاثاً أو تسعاً، فهم لا يتمتعون بالحياة، ولا يدفعون الحياة إلى الأمام، نظير المرتاضين الذين لا يتوغلون في الحياة، لا انصرافاً إلى العمل في سبيل مبدأ أو دين، بل تلبية لسلبيتهم النظرية وتفسيرهم الخاطىء لمفهوم الحياة. فعزوفهم عن المباهج والتسليات، ليس ناتجاً من الانهماك المر العنيف في العمل الجدي الصاعد لصالح الإسلام، وإلا لاسترجعوا مجده الغارب وجددوا كيانه المنهار، وإنما هو تعبير عملي عن العزوف الفكري والعقيدي، الذي لا قيمة له في رأي الإسلام التوسعي الزاحف.

ج ـ إن أكبر مميزات علماء المسلمين أنهم احتفظوا بأسلوبهم المبدئي الموروث عن الأنبياء والأئمة عليهم السلام فهم لا يحتجبون عن الناس بالحرس والدوام والروتين، بل يسمحون بأنفسهم وقفاً على المصالح العامة، تاركين حياتهم صفحة مفتوحة للجميع، بحيث يتسنى لكل إنسان أن يتصل بأي واحد منهم متى شاء، بلا وسيط ولا سابق استئذان. وفي وسعك أن تتصل بهم شخصياً، وتتابع سيرتهم، وتتصفح وجهات آرائهم ونشاطاتهم. وإنني أؤكد لك مقدماً أنك لن تجد في يومياتهم فراغاً شاغراً، وإنما هو حدب وانكباب، على العمل المرهق الطويل، لو استثنينا فترات النوم والتغذية والعبادة.

وإذا كانت فترة العمل عند الناس ـ في اليوم الواحد ـ تتراوح بين ست ساعات وثماني ساعات، فليس في العلماء من يقتنع بالعمل عشر ساعات، لا، ولا باثنتي عشرة ساعة، بل إنهم يستهلكون الوقت كله في العمل، عدا أحيان الاشتغال بالحاجات الضرورية، التي لا يمكن

الاستغناء عنها بحال. وربما تمكنهم وفرة النشاط ـ أيام الشباب ـ من تقليص فترات النوم بضع ساعات، لتوسيع العمل.

وقد سمعت ـ مباشرة ـ من أحد العلماء، في ندوة خاصة، قوله: إنني لم أكن أنام في اليوم الواحد سوى ساعتين ونصف الساعة... وسمعت الآخر وهو يقول: إنني لم أكن أنام ـ في أيام دراستي ـ على الفراش، وإنما كنت اشتمل الحباء، متكوماً جنب الجدار حتى لا يغمرني النوم طويلاً...

وإن الأفراد المقربين إلى العلماء يعرفون أن حياتهم الشخصية، تدعو إلى الإشفاق من كافة ذويهم، لكثرة ما تحفل بإنكار الذات، والاستهلاك في العمل الدائب، والاسترسال مع كل مشقة مضنية، إلى حيث تحطم طاقاتهم الجسدية بلا مبالاة.

***

٣ـ إن كان العلماء، يؤدون هذا العمل الضخم القاسي، فلماذا لا نرى نتاج جهودهم؟ ونحن نود ان نتلمس ثمار جهاد علمائنا، لنطمئن إليها، ونعتز بها ونفتخر.

ج:

أ ـ إن العلماء يؤمنون، بأن العمل الإسلامي الصادق لا يتحقق إلا عندما يكون خالصاً لله، لا حينما يخدم المصالح الشخصية، أو يهدف إلى بناء العامل نفسه، والله سبحانه يثمن العمل الذي يلفه الانكار والكتمان، ويضاعف عليه الثواب، فيما عدا مواد سنّت لاعلاء الشعائر، واقامة الشكليات، كما ينص القرآن الكريم عليه بقوله: ﴿إِن تُبْدُواْ

ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ﴾.

بينما يبخس بل يحبط العمل الذي يجسده التظاهر والرياء، أو يخامره حب الظهور، وعبادة الذات والناس.

واتباعاً لهذه التعاليم، ينطلق العلماء، في أوسع عمل ممكن، بجد ومثابرة وإخلاص، ولكن بكل انطواء وزهد وإنكار. فيجهل الرأي العام جهودهم ومنجزاتهم، فيتنكر لهم. وقد ينحي عليهم باللائمة والتقريع، فيما هو أولى منه بالتعنيف، لأنهم لا يهدفون استدراج الرأي العام، وإنما يحاولون كسب مرضاة الله، الذي يحصي خطرات القلوب، ويكره التظاهر والرياء. ولو كانوا يريدون علواً في الأرض وفساداً، ويمنون على الناس بكل خطوة وكلمة، ويسجلون نشاطاتهم حرفاً بحرفين، لعرضها وترديدها يوم الحساب، وفي كل مجمع ومشهد، للتفاخر والمزايدة والاستعلاء لتملقهم حينئذٍ الرأي العام، وانحنى أمامهم تصاغراً وشكراً، أضعاف ما يقدر الرؤساء النفعيون، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، ويكبلون الشعب والرأي العام بألف قيد وقيد، ويسدلون دون الشعب ألف حجاب وحجاب، ويبعدون عنه ألف باب وبوّاب، ثم يعتبرون أنفسهم أجراء الشعب لإنجاز هذه الجرائم ونظائرها، فيستهلكون أكثر ميزانية الدولة، كأجرة بسيطة يتقاضونها إزاء أداء هذه الرسالة الخالدة، رسالة الطغاة المستأثرين، رسالة القمع والإرهاب والخيانة والعهر والمجون.

ب ـ إن أجهزة الاستعمار العالمي، والحكومات المحلية المنحرفة، تتناصر لمحق العلماء، وغمط كل ما لهم من جهاد وجهود، والتربص

بهم، والإرصاد لهم، وقذفهم ونبذهم، وإغراء البلهاء وذوي العاهات بهم، وتلفيق الشكوك والافتراءات والشائعات المزورة حولهم، وإزاحتهم عن كل منصب ومجال، كل ذلك كي يتسنى لها فرض السلطات العميلة على الشعوب المسلمة، بلا نذير واع، ومعارض مفكر.

فبهذه الأراجيف والتهريجات، وبما تملك من قوات وطاقات، استطاعت إقصاء العلماء عن متبوئهم المكين الرفيع في قيادة الأمة، وتوجيه الرأي والاتجاه العالميين، والهيمنة ـ بعد ذلك ـ على مسير الإنسان، ومصير الحياة... وبعد ان انتزعت من تحت أقدامهم بساط الريح، عملت على حصرهم في المساجد والمدارس العلمية، وتطويقهم في نطاق ضيق من القوانين والتشريعات الجائرة، وتوتير علاقاتهم بالناس والحياة.

وفي نفس الوقت الذي نجد العلماء يخوضون الحرب المصيرية، ويقاومون في معركة الموت والحياة، ويتكبدون الخسائر الفادحة من أسلحة التوجيه، وأجهزة المراقبة والتخريب، لا يطيقون إنجاز العمل الواسع، الذي يشاؤون وتشاء الأمة.

إن الحكومات المحلية المنحرفة، ومن فوقها السلطات الاستعمارية العالمية، تضيق عليهم الحصارين: الأدبي والمسلح ـ يوماً بعد يوم ـ وتغلق أمامهم الطرق أينما اتجهوا، وتصدهم كلما حاولوا، وتناقض عملهم وتوجيههم إذا عملوا وإن وجهوا، وتخبط أوساطهم، مهما صمموا وكيفما خططوا.

إنهم لم يكتحلوا بالضياء، حتى ينشروا ركائزهم التي تجيش بهم،

فلا تجد منفذاً، ثم تضغط إلى الأعماق لتهدأ وتبور، ولم يستنشقوا الحرية، كي يعبروا عن آرائهم وكفاءاتهم، ولم تفرج عنهم النوافذ لينطلقوا إلى ما وراء الحدود والمسافات.

وفي هذا الجو الخانق المدلهم، يطالبهم الناس بالتغلب على المستعمرين، في الفتوحات الفكرية والسياسية، ويعنّتونهم إن فشلوا في الاستمرار في مسيرة آبائهم، الذين لم يعرفوا الحدود والقيود.

وأستطيع أن أقول بكل تأكيد: إن التأخر الذي نجده في حياة المرجعية ليس ناتجاً من قصور في العلماء أنفسهم، وإنما هو نتاج الجو الخانق الذي اطبقته الحكومات الاستعمارية والعميلة على العلماء، حتى لا يتاح لهم أكثر مما يعملون.

وأستطيع أن أؤكد اليمين غير حانث، على أن ابطال الإسلام، لو عاشوا الحياة التي يمارسها علماؤنا اليوم، لعجزوا عن صياغة المعجزات وتطوير التاريخ، ولتقاعسوا كما تقاعس الامام علي أمير المؤمنين عليه السلام، ربع قرن كامل بعد الرسول العظيم، وكما انكفأ الامام الحسن السبط، والإمام علي السجاد، والإمام موسى الكاظم عليهم السلام أيام أطبق الظلام المسدف الثقيل، واستبد الطغيان الغشوم، وكما اعتزل الإمام المهدي المنتظر عليه السلام وتوارى عن حياة الظلم والظلام، ريثما تفرج أزمة النصر، فيقود ركائبه السافيات، لاعفاء آخر أثر للشيطان.

ج ـ وتأثراً بحرب التضليل التي تشنها أجهزة الدعاية الاستعمارية، والمواكبة لخطوات الاستعمار، تحامت الشعوب المسلمة الغريرة عن العلماء، وأسلمتهم للأخطار في ساعة الصفر، فتشققت وتبعثرت

قاعدتهم الصخرية الواسعة، لتنظم فلولها تحت القواعد الاستعمارية والعميلة، التي تحشد لنسف قيادة العلماء، فخسرت الأمة قيادتها، وخسر العلماء قاعدتهم.

ولما أفرد العلماء عزلاً، لا يملكون أدنى مقومات الحياة ومعدات الدفاع ـ بله قوات التوسع والانطلاق ـ جمدوا في مواضع أقدامهم، حيث لم يكن لهم سوى أن يقوموا بحركة انتحارية، أو يجمدوا آملين بالمستقبل بلا حراك. ففضلوا الحياة للأمل، على الموت لليأس. ولم تحن بعد ساعة أملهم المشرق، التي عاشوا من أجلها القيد والاضطهاد، إذ لا زالوا في حالة سقوطهم، ولم تتوفر لهم الامكانات المادية، التي تضمن إلى جانبها النصر المحتوم. فرغم أنهم يحتفظون بالقيادة العليا، لقوتي الفكر والروح، إلا ان القوى المعنوية لا تتفاعل ولا تعيش إذا لم تجد الحماية والإطاعة الكافيتين، من القوات المادية، المتمثلة في المال والسلاح.

وإنني أعترف بأن «حركة الفقهاء المراجع» قد شلت دون إنجاز رسالتها المقدسة، وألغت سياسة الزحف والتوسع، لتتبنى سياسة التزمت والتراجع، ولتعايش الحياد الإيجابي طوراً، والحياد السلبي تارة أخرى.

غير أن هذا النوع من التقلص والصمت والضمور، لا يعد انهزاماً ولا هدنة. لأنه كان النتاج المحتوم لتفاعل العوامل السابقة، التي تضافرت من الخارج والداخل، لضرب «حركة الفقهاء المراجع».. وإن الحنكة السياسية، هي التي تستوحي إرادتها من ذات المعركة، فتأمر بالمقاومة والزحف، أو الاستسلام والتراجع. أما النزق السياسي فإنه يستوحي إرادته من واقعه، دون تقدير للموقف فيأمر بالزحف أو الصمود،

بعد تطور المعركة، عن صيغتها للبدائية.

وإن القرارات التي اتخذتها «حركة الفقهاء المراجع» في معاركها المصيرية، مع قوى الكفر والفسوق، تنم عن نضوجها البليغ في التقدير والتصميم.

فبعد أن استطاع الاستعمار وعملاؤه، القضاء على الحكم الإسلامي، توجهت قوى الكفر والفسوق، إلى القضاء على «حركة الفقهاء المراجع» باعتبارها امتداداً أصيلاً للحكم الإسلامي، في المجال الشعبي، الذي يعبد الطرق لاقامة الحكم الإسلامي في المجال الدولي. وبانهيار الحكم الإسلامي، انهار رصيدها في الداخل، وانفرطت قاعدتها الشعبية، وتضخمت القوات المعادية لها. ولو أنها واصلت مقاومتها يوم ذاك، للقيت حتفها الأبدي في الجولة الأولى، ولكنها لم تكن عاطفية طائشة، لا تستطيع وعي المعركة، ومضاعفاتها، حتى تخوض معركة خاسرة، وإنما كانت في ذروة النباهة، يوم رأت إلقاء السلاح، وإعلان السلام، لصيانة بقايا الإيمان العقيدي، إن لم يكن على مسرح الحكم، ففي أعماق القلوب، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

و«حركة الفقهاء المراجع» لا زالت قوة مفكرة، ومحركة في قمة الوعي والنضوج، بجميع خططها وتوجيهاتها، فهي تقدر المعارك بدقة وإتقان، وتوازن القوى المتصارعة فيها. فمتى وجدت القدرات الجاهزة في الفصائل المسلمة متكافئة مع القوى المعادية، تعود إلى خط النار. وحيثما رأت الطاقات المسلمة الجاهزة، غير متكافئة مع القوى المعادية، تتربص وتنتظر.

والانتصار السياسي النابغ، ليس في الحرب أبداً، ولا في السلم أبداً، وإنما هو في الحرب حيناً، وفي السلم حيناً آخر.

وبهذه الحقيقة، نفسر ظاهرة الاختلاف السياسي، في «حركة الفقهاء المراجع» ـ التي قد يفسرها الأعداء أو الأغرار، بالتناقض الفردي الكيفي ـ فإن العلماء يحددون الظروف، فينتهجون الحركات المختلفة التي تلائمها، وتستجيب للحاجات المتطورة، دون أن يكون بينهم أقل اختلاف في السياسة العامة، وإنما هو الكفاح، الذي تتطور ملابساته ومواقفه، فتختلف خططه وبرامجه.

ولكن الذي ترك السذج البسطاء، فريسة للأراجيف، هو أن القادة ـ في أكثر المعارك ـ لا يرون من الصالح، التعبير للرأي العام عن فلسفة الخطط التي يتبنونها ـ كي لا يعرف العدو أسرارهم فيناقضها ـ فيظن الأغرار أنهم يختلفون فيما بينهم، ويضربون في التيه بلا هدى، بينما هم على بصيرة وحق وهدًى.

***

٤ـ لا بد من الاعتراف، بأن جماهير المسلمين، قد انفرطت من قيادة العلماء، وتلاحمت اشتاتها للإنضواء تحت قيادات الاستعمار، والأحزاب، والحكومات المحلية المنحرفة. كما لايمكن إنكار: أن السلطات الاستعمارية والحزبية والحكومية العميلة، تطاردهم وتضيق عليهم السياج المادي والمعنوي. ولكن، إذا حق أن العلماء يواصلون العمل الدائب الحكيم، فلماذا لا ينتجون المنجزات التي تتناسب وهذه الجهود الضخمة التي تصفونها؟..

ج ـ لأن عدد العلماء، أقل من المجهود الذي يأمله منهم العالم الإسلامي، والحاجة التي يواجههم بها المسلمون.

وإذا أمكن أن نطالب كل واحد منهم بعمل رجلين، أو عمل دائرة كاملة، فلا يسمح كيانه العضوي البشري، بمطالبته بعمل حزب أو وزارة أو حكومة.. وقد أصبحت توقعاتنا من العلماء بهذه النسبة المجازفة. فعندما يرى المسلمون حكومة تنحرف عن خطة الإسلام، أو تضطهد الشعب، يصبون حقدهم اللئيم، على العالم الديني الذي يعيش في ظلها، مع العلم بأنهم لا يعرفونه ولا يستجيبون له في صغيرة ولا كبيرة، ومع الاعتراف بأنه مطوق مادياً ومعنوياً ـ في غير ساعة الأزمة ـ وهل العالم إلا انسان واحد في طاقاته الجسدية! ومهما كان قوي الروح والفكر فهو لا يستطيع مقاومة المدافع والصواريخ بصدره، وإن استطاع دحر التيارات الفكرية بفكره، وقيادة الشعوب والجيوش بعقله.

بل لو أردنا إنصاف الواقع، لما كان لنا أن نطالب العلماء، بأي عمل اجتماعي أو سياسي، ما داموا لا يمثلون سوى طاقة الفكر، وما دمنا لا نوفر لهم طاقتي المال والسلاح. لأن الفكر طائر جناحاه المال والسلاح، وهو بدونهما لا يجوب شبراً من الأرض.

وحتى لا يحق لنا أن نطالب علماء المسلمين، بمثل عمل «الفاتيكان» التي ارتبطت مع المستعمرين، في اتفاقيات التعاون المتبادل، والمصالح المتكافئة، فتنازلت تنازلات عديدة لارضاء السلطات الاستعمارية والمحلية، وعوضتها هذه بالحماية والرعاية، حتى أصبحت لها منظمة واسعة تضم ١٢ مليون مبلغٍ، وأصبحت لها ميزانية ضخمة تربو على ميزانية كثير من الحكومات. وتتألف هذه الميزانية، من الأتاوات التي

تفرضها على الحكومات، وعلى الرأسماليين الكبار، وعلى العمال والموظفين، وتقطعها من رواتبهم قبل استيفائها، كما تقطع الحكومات ضرائبها.

***

٥ـ إذا كان عدد العلماء، أقل من حاجات المسلمين فلماذا لا يوفرون، حتى يملأوا الفراغات الشاغرة الآن؟

ج ـ إن توفير العدد يحتاج إلى جو يشجع «حركة الفقهاء المراجع» حتى يتطوع أصحاب الكفاءات للقيام بهذه الرسالة الباهظة، كما يحتاج إلى إمكانات مادية مفقودة في هذه الظروف، التي تتنكر للعلماء.

***

٦ـ إذن.. فيعني جميع ذلك ان «حركة الفقهاء المراجع» حركة ضعيفة، تعجز عن الاستقلال بأعباء مسؤولياتها ـ في وضعها الحاضر ـ وتفتقر إلى الجدارات التي تؤهلها للتوسع والازدهار.

ج ـ نعم.. إن «حركة الفقهاء المراجع» ـ في صيغتها المعاصرة ـ ضعيفة بالقياس إلى الحركات العالمية، وضعيفة بالقياس إلى مسؤولياتها، ولا أدل على ضعفها الصارخ، من عجزها عن قيادة الأمة إلى شاطىء السلام، وكسر التيارات التي تحاول جرفها في مجراها الشائك الوعر..

ولكن علينا أن ندرس هوية الضعف العام، الذي يشل هذه الحركة عن القيام بمسؤولياتها، لنعرف هل أن هذا الضعف ذاتي أم أنه عرض لها، كي نتبين صلاحيتها لقيادة الأمة أو عدم صلاحيتها؟؟

والواقع أن «حركة الفقهاء المراجع» لا تشكو العجز الذاتي، وإنما

تشكو الضعف الطارىء، الناتج من أمرين، هما: انفراط قاعدتها على إثر انهيار الحكم الإسلامي وارتداد الأمة عن دينها وقيادتها، ومحاربة السلطات الاستعمارية والمحلية لها. ومن الطبيعي أن تضعف «حركة الفقهاء المراجع» نتيجة لانفراط قاعدتها، ومحاربة السلطات الاستعمارية والمحلية لها، فكل حركة ـ مهما كانت قوية نشطة ـ تضعف، إذا انفرطت قاعدتها، وتألب عليها أعداء أشداء.

بل الحقيقة: ان «حركة الفقهاء المراجع» تتمتع بقوة ذاتية منقطعة النظير، لأنها عاشت منذ غيبة الامام المنتظر عليه السلام حتى اليوم، وهي تدير دفة القيادة الدينية للامة، بلا حماية ولا سلاح، رغم أنها كانت تشتبك مع جميع الحكومات التي اختلفت على الأمة، في مختلف أقطارها، في صراع دائب مرير. ورغم أنها لم تملك في يوم واحد من تاريخها الطويل ميزانية منظمة، ولا قيادة ثابتة، في نقطة معينة من العالم. ورغم أنها كانت تصب اللائمة بلا حراجة على جميع الطغاة والفاسقين ـ رغم جميع ذلك وغير ذلك من بواعث التلاشي والضمور عاشت «حركة الفقهاء المراجع» كقوة متفاعلة محركة، تهدد وتنصر، وبقيت حتى الآن، ولها في كل مكان فروع وقيادات ومعارك. وستبقى ما بقيت الأمة، قائدة عقيدية، أو قائدة عقيدية وسياسية معاً.. وهذه الظاهرة الغريبة، التي تطبع تاريخ «حركة الفقهاء المراجع» ظاهرة غريبة عن طبيعة الحركات الاجتماعية. فليست بين هذه حركة عاشت هذا الأمد الطويل، بلا قيادة ثابتة، ولا ميزانية، ولا حماية، وهي تحارب جميع السلطات العالمية والمحلية، وجميع الطغاة والمفسدين، ثم تمتد لها فروع في كل اتجاه... وفي هده المقارنة العاجلة دلالة بينة، على أن «حركة الفقهاء المراجع» تتمتع بقوة ذاتية

منقطعة النظير، تؤهلها للقيام بكافة مسؤولياتها ـ إذا توفرت لها الإمكانات اللازمة ـ بل ترفعها فوق جميع القيادات، التي يمكن أن تقود الأمة المسلمة يوماً ما.

فهي تملك مؤهلات التوسع والإنتاج. ولكنها بوضعها الحاضر، لا تطيق التعبير عن واقعها التوسعي المنتج. فعلى الحركات الإسلامية المخلصة، التي تسعى لإقامة واقع إسلامي صحيح، أن تلغي امتيازاتها وأنانياتها المغرقة، وتندمج في «حركة الفقهاء المراجع» وتضفي عليها الجهود، وتوحد فيها النشاط، لتعبر عن غزارتها التي لا تعرف التوقف، ولا تعترف بالحدود.

***

٧ـ وبالتالي... ماذا أنتجت «حركة الفقهاء المراجع» في القرن الأخير؟.. فلقد كان لهذه الحركة واقعها وإرادتها في ظل الأجواء الإسلامية، التي أطبقت القرون السابقة، وأما بعدما تقلص الجو الإسلامي العام، عن أكناف البلاد الإسلامية، وبقيت الأمة تحت التيارات العالمية السافيات، لم تنجز «حركة الفقهاء المراجع» أي مشروع ولم تؤد أي جزء من رسالتها.. وهل هذا الشلل العام، الذي دب فيها، إلا دليلاً على أن هذه الحركة لا تصلح للمعارك والميدان، وانما تصلح للمساجد والمعاهد الدينية! وأن عالم اليوم، يحتاج إلى قيادة متصارعة، تخوض الغمار، ببسالة تكتب النصر المؤزر للأمة، في الملاحم المصيرية الحاسمة.

ج ـ إن «حركة الفقهاء المراجع» كانت منذ غيبة الإمام المنتظر (عجل الله تعالى فرجه) قائدة الأمة المسلمة، والركيزة الأساسية، التي كانت

تركز عليها الحكومات الإسلامية، فان جميع خلفاء الامويين والعباسيين والعثمانيين، كانوا منحرفين عن خط الإسلام الصميم. والملوك الإسلاميون كانوا بين منحرفين ومعتدلين، فأما المعتدلون منهم فقد كانوا نتائج هدى العلماء. وأما المنحرفون فقد كانوا يتملقون العلماء أو يخشون غضبتهم، فيجعلون الأجواء إسلامية، لا إيماناً بالإسلام نفسه، وإلا لما انحرفوا عنه بأنفسهم.

فقد كانت «حركة الفقهاء المراجع» هي التي تطبق الإسلام في كل مرافق الأمة ـ في القرون السابقة ـ.

ولا زالت «حركة الفقهاء المراجع» قائدة الأمة المسلمة حتى اليوم. فكل إثارة دينية، في أي مكان من الأرض نتيجة مباشرة لهذه الحركة. وكل ما ترسب من الإيمان في النفوس، وما استقام في الحياة من شعائر ومظاهر دينية، إنما تفرع عن «حركة الفقهاء المراجع»، ولولاها لما عرف الله ولما عبد، ولم ينبض قلب بالإيمان، ولا صلى أحد لله ركعة، في هذه الأجواء الاستعمارية المسعورة، التي وجهت كافة الطاقات العاملة، لخدمة الميوعة والالحاد.

لقد بقيت «حركة الفقهاء المراجع» هي التي تعمل لامتداد الإسلام، في جميع مرافق الأمة ـ في هذا القرن الأخير ـ.

وكانت «حركة الفقهاء المراجع» ولا زالت، حركة متفاعلة جبارة تخوض المعارك ـ بجميع ألوانها ـ كأقوى طاقة مكافحة تقتحم الملاحم. وما نماذج المعارك السياسية التي خاضها العلماء عن ذاكرتنا ببعيدة.

فهذا هو السيد محمد المجاهد، الذي حمل السلاح، وقاد

الجيوش، للزحف على روسيا القيصرية، عندما بسطت سيطرتها على بعض بلاد إيران.

وهذا هو السيد محمد حسن الشيرازي، الذي حارب الاستعمار البريطاني، وطارده من إيران، عندما كان يتسلل إليها بواسطة احتكاره شركات التبغ.

وذاك الشيخ محمد كاظم الخراساني، الرجل الذي قاد الشعب الإيراني لضرب الدكتاتورية والإستبداد الفردي الملكي، حتى أخضع الملك مظفر الدين شاه للدستور الإسلامي الذي وضعه العلماء يومذاك.

وذلك الشيخ محمد تقي الشيرازي، الذي فجر ثورة العشرين ضد الاستعمار البريطاني في العراق، رغم القوات البريطانية المحتلة التي حشدت في العراق (٢٠٠) ألف جندي مدجج بالسلاح.

وبعده السيد أبو الحسن الاصفهاني، الذي حمل بنفسه السلاح، وخاض معارك ثورة العشرين مباشرة، كجندي في زمان الشيخ محمد تقي، وكقائد بعد وفاة الشيخ محمد تقي، حتى سفّره الملك فيصل الأول إلى خارج الحدود العراقية.

وها هو السيد عبد الحسين شرف الدين، الذي حارب الاستعمار الفرنسي، حتى سفر وحكم عليه بالإعدام وأحرقت داره ومكتبته.

وذلكم السيد حسين البروجردي، الذي جاهد ضد البهلوي السابق، حتى ألقي عليه القبض، وحكم عليه بالاعدام، واعتقل في سجن «قزلقلعة».

وهؤلاء علماء العراق الذين كافحوا الحكومات البائدة، وحاربوا

الشيوعية والبعثية والاشتراكية، ولا زالوا في صراع.

واولئك علماء إيران، الذين قاوموا الشيوعية بقيادة السيد حسين البروجردي، ومن بعده أعلنوا كفاح الشاه محمد رضا، حينما حاول إلغاء الإسلام في مرافق الحكم الحاضر، ولا زالوا يواصلون الكفاح.

مع العلم بأن جميع هذه الثورات كانت ملونة بالدم، ومثقلة بالضحايا.

وإن من تتبع تاريخ العلماء، يجد أن جميعهم كانوا ثائرين ضد الحكام المنحرفين والتكتلات، منذ الشيخ الطوسي حتى اليوم، ويلمس بوضوح، انهم كانوا يشكلون القاعدة لكافة الانتفاضات والثورات الإسلامية التحررية، ويرى أن كافة الأفراد والكتل، التي خلدت أسماؤها في تاريخ الجهاد الإسلامي، كانت تتطفل على العلماء في المعركة، فتقتبس من هديهم وجهادهم، حتى إذا هدأت الأوضاع، وجرت المياه في مجاريها، سكت العلماء عن أعمالهم، وبقيت تلك الكتل والأفراد تتبجح وتفتخر، معلنة عقيرتها بالرياء والكبرياء. فحسب البسطاء ان هذه هي التي قادت المعركة، وأن العلماء الذين يكرهون الفخفخة والتظاهر، لم يكن لهم نصيب من الكفاح.

لكن التاريخ الواعي، سجل بطولاتهم وأمجادهم بأحرف من نور، وكتب لهم خلود الحق والمجد، ولأعدائهم خلود الباطل والعار.

فـ «حركة الفقهاء المراجع» لم تكن يوماً ما، حركة متوترة الأعصاب والعضلات، ولا حركة التملق والتماسيح، ولا حركة الزهاد والمترهلين. وإنما هي حركة العلم، والمحراب، والقلم، والسلاح، والتطور،

والميدان، والجيوش، والفضيلة، والأخلاق.

***

٨ ـ صحيح كل ذلك.. ولكن لماذا لا نجد العلماء يوماً في الميادين الشعبية ومع الشعب في آماله وآلامه ومعاركه، وإنما نجدهم في الأبراج العاجية، مطوقين بهالة من الزهد والاحتياط، ومحاطين بحلقة معينة من الرجال، التي تكاد تفصلهم عن جماهير الشعب فصلاً تاماً، بينما على زعماء الشعب أن يكونوا من الشعب وفي الشعب، حتى يمارسهم ويمارسوه، ويتجاوب معهم ويتجاوبوا معه، يفهمهم ويفهمونه، فيطمئن إليهم ويطمئنون إليه!!

ج ـ وأي نوع من الزعماء الشعبيين، ينزلون إلى الميادين الشعبية، كما ينزل العلماء؟ ومن هو ذلك الزعيم الشعبي الذي كان مع الشعب في جميع تطورات حياته؟ لا أحد. ولا يمكن أن يوجد زعيم شعبي ينزل من الشعب منزل العالم الديني، لأن العالم الديني بحكم حياته الفكرية الدينية، يشكل المرفأ الأمين للقلوب التي أتعبتها العواصف والأهوال. فأينما ذهبت ببصرك من مرافق حياة الفرد، تجد العالم الديني منتصباً إلى جانبه. فيوم ولادته، يكون العالم قائماً على رأسه، يلقي في مسامعه كلمات الحياة ملخصة في الأذان والإقامة وفي يوم ختانه يكون العالم قائما على رأسه يلقي عليه فصلاً آخر من التعاليم الخالدة، في صيغة التراتيل المسنونة. وفي عهد صباه كلما شهد المحافل مع أبيه أو أمه، يكون العالم قائماً على المنبر، يردد عليه توجيهاته المشرقة، التي تطبعه بالاتجاه الصحيح للحياة. وفي عهد شبابه يتردد على العالم أو يتردد العالم عليه، ليستوحي منه الشاب المناهج العملية للحياة. ويوم زواجه تكون الكلمة

الفصل للعالم الذي يعقد القران بينه وبين شريكة حياته. وبعد ذلك يكون العالم الديني شريكاً له في جميع منجزاته من العبادات والمعاملات، وفي كافة مناقضاته، من الخصومات والمرافعات. وحتى عند مماته وبعد موته، يكون العالم الديني، واقفاً على رأسه، يلقي عليه كلمات الفرج، ويلخص توجيهات العمر، ليصبهما في آذانه مجموعة في كلمات هي هدف الإنسان من الحياة. وبعد كل ذلك يبقى العالم قيماً على ورثته، وحاكماً في تركته، ومنفذاً أو موجهاً لوصاياه.

فالفرد المسلم، يولد ويعيش ويموت، تحت الرعاية المباشرة للعلماء، ويستقي ركائزه العميقة من توجيهاتهم وارشاداتهم.

بالإضافة إلى أن العلماء، مصلحون اجتماعيون، في النطاق الذي يسمح لهم بالإصلاح. ويكون قيامهم بالاصلاح، من النوع النموذجي النادر، الذي يعطي ولا يأخذ، ويرتفع ولا ينحدر. لأنهم ينهضون بالإصلاح مع التواضع وإنكار الذات، ومع التضحية والإخلاص، ولا يفرضون على المجتمع، الحلول الارتجالية الكيفية، المتأثرة بالعواطف والنزاعات، حتى يكون ضررهم أكثر من نفعهم، وإنما يعملون لتطبيق حلول السماء، على المؤمنين.

على أنه إن كان هنالك صوت واحد يعبر بكل صراحة وأمانة عن آمال الشعب وآلامه، فهو صوت العلماء. لأنهم في كل خطوة وكلمة، يراقبون الله، الذي يسجل جميع أعمالهم وأقوالهم لعرضها يوم الحساب فلا يكذبون ولا يزيفون. ويشحذون مشاعرهم أكثر فأكثر حتى لا يخطئوا، فتطاردهم مغبة خطئهم الناجمة من الأحكام الوضعية.

وإن كان هناك للمجتمع حصن منيع يحفظه من جرف التيارات الأجنبية المستغلة، وسلاح يدرأ عنه الهجمات الظالمة، فإنه لا يكون إلا في وجود العلماء، الذين وقفوا أنفسهم لخدمة الله عن طريق خدمة المجتمع. ولا الذين تربطهم المصالح الخاصة بالناس أو بالحكومات، حتى يجاملوا الباطل حرصاً على سلامة مصالحهم. ولا تكون لهم علاقات وثيقة بالمجتمع نفسه، حتى يهابوا السلطات التي يكافحونها، من معاقبتهم في توتير علاقاتهم.

***

٩ ـ أو ليست الأحزاب الإسلامية، تنهض بنفس هذا الدور؟...

ج ـ كلا.. إن الأحزاب الإسلامية، لا تعمل ولا تفكر ان تعمل إلا في سبيل نفسها، وتقوية ذاتها، وصهر جميع القوى والطاقات العاملة، في خلاياها وشبكاتها، إرواء للأنانية الجشعة التي تنتفخ بها الأحزاب بصورة عامة ـ والأحزاب الإسلامية بصورة خاصة ـ وتأكيداً لأملها الكاذب الفاشل، في السيطرة على الحكم.

إن الأحزاب الإسلامية تحاول ضرب جميع المشاريع الإسلامية فكرياً وخارجياً، بزعم أن كل مشروع اسلامي لا ينفع إذا كان الحكم منحرفاً، فلا بد من إلغاء كافة المشاريع، وتوحيد جميع الطاقات العاملة في سبيل إقامة الحكم الإسلامي، إذ لو تم قيام الحكم الإسلامي، لسهل في ظله كل مشروع اسلامي، بل لظهرت المشاريع الإسلامية على المسرح العام، بصورة تلقائية.

إن هذا الفكر من أكبر الأخطاء المزمنة، التي لقح الاستعمار بها

الأحزاب الإسلامية، ليضرب عن طريقها الإسلام. لأن من غير المحتم أن يقوم الحكم الإسلامي، حتى لو انصهرت الطاقات العاملة في الأحزاب الإسلامية، بل ربما تفشل الأحزاب الإسلامية، بعد استهلاكها الطاقات العاملة، كما فشلت الأحزاب الإسلامية، التي تكونت وتبخرت في مختلف البلاد الإسلامية، منذ انهيار الحكم العثماني حتى اليوم.

وحتى لو نجحت الأحزاب الإسلامية، في اقامة الحكم الإسلامي، فإن الحكم الإسلامي لا يعني ارتفاع عدد من الأفراد الحزبيين إلى المقاعد العاجية. وإنما الحكم الإسلامي يعني توسع المشاريع الإسلامية، حتى تسيطر على المرافق الفكرية والعملية للامة. فاذا ضربت الأحزاب الإسلامية المشاريع الإسلامية ونجحت في تسلم الحكم فإن الحكم الإسلامي، يضطر حينذاك، إلى العمل لايجاد نفس المشاريع التي عملت تلك الأحزاب قبل تسلمها الحكم لإلغائها.

فيظهر هذان العملان أمام الرأي العام في صيغة المتناقضين.

على أن المشاريع الإسلامية، لا تطيق أن تفتح مجالاتها في المجتمع، إذا لم تكن لها قاعدة واسعة سابقة، تسمح باعتبارها طبيعية خفيفة على الأمة. وإلا فإن الأمة تتلقاها بتذمر، وتطرأ عليها ارتجالية عنيفة، فلا تشجع تلك المشاريع، وإنما تعتبرها من تبعات الحكم الإسلامي، فتعمل لإزالتها وإلغائها. وهكذا، في حين يجب أن تكون المشاريع الإسلامية قاعدة واسعة للحكم الإسلامي، تنقلب إلى حركة استفزازية، تساعد على القضاء عليه.

ومع أن الهدف الأول والاخير للحكم الإسلامي، لا بد أن يتلخص

في التوجيه العقيدي والعمل للامة، (وإن المشاريع الإسلامية ـ مهما كانت متبعثرة متوترة ـ لا تعدو أن تكون عملاً في سبيل هذا الهدف) ومن الواضح انها تحرز نجاحاً في هذا المجال، فلا مبرر لتجريد الأحزاب الإسلامية حملتها الشعواء عليها ما دامتا تشتركان في الهدف، ولا تختلفان إلا في أن المشاريع الإسلامية تعمل بالفعل لإنجاز ذلك الهدف، والأحزاب الإسلامية، تمني أعضاءها بأنها سوف تعمل في المستقبل لانجاز ذلك الهدف، فالواقع أن منطق هذه الأحزاب يشبه منطق من يقول: لا تؤمن بالله والرسول الآن، حتى تعمل في سبيل الإيمان بهما في المستقبل القريب أو البعيد، ولا تصل ولا تصم ولا تحج، الآن، ولكن اعمل حتى تصلي وتصوم وتحج بعد عشرين سنة. إنه لا معنى لضرب الهدف في سبيل تحقيق الهدف، سوى تطبيق الانتهازية القائلة: «الغاية تبرر الواسطة».

فالأحزاب الإسلامية لا تتجاوب مع الشعب في آماله وآلامه، وتنصب من نفسها سياجاً للمجتمع، بل بالعكس من ذلك، انها تختصر نشاطاتها في سبيل ضرب كافة الأهداف والمشاريع الفعلية، وتحاول استهلاك كل عمل وهدف ـ حتى هدفها الخاص ـ لتقوية كيانها الفعلي، الذي يحاول السيطرة على الحكم، تبريراً لنزوات أفراد عرفوا الأحزاب الإسلامية أقرب السلالم إلى الحكم، فتبنوها، لا لها، ولا للإسلام، وإنما لهم وللحكم فقط وفقط.

إنما العلماء وحدهم، هم صوت الشعب المخلص، المعبر عن آماله وآلامه، وحصن المجتمع وسلاحه.

***

١٠ ـ إن كان العلماء ـ كما تقول ـ هم صوت الشعب المعبر، وحصنه المنيع، وسلاحه المشهور، فلماذا لا يسندون الأحزاب الإسلامية، ولا يتجاوبون معها، وهي تعمل في سبيل الشعب والمجتمع؟..

ج ـ لأن العلماء، يلمسون الانحراف الذاتي، والعملي في الأحزاب الإسلامية.

أما الانحراف الذاتي، فناتج من ان الأحزاب الإسلامية محاولة لايجاد قيادة إزاء القيادة الإسلامية التي قررها الإسلام بنفسه، ومن ان أساليبها أساليب ديموقراطية. وأما الانحراف العملي فيها، فلأن تصرفاتها ودساتيرها غير صحيحة في رأي الإسلام، وليس من حق العلماء، أن يسندوا الحركات المنحرفة، مهما تبرقعت بالواجهات الصفيقة والخلابة.

على أن هذه الأحزاب، لم تعمل يوماً في سبيل الشعب والمجتمع، رغم مناداتها الملحة باسمهما في كل مناسبة وبلا مناسبة، للاستهلاك الوقتي و خداع الجماهير.

***

١١ ـ ولو افترضنا صدق جميع ما سبق وصحته، وآمنا بانحراف جميع الأحزاب الإسلامية الموجودة، كما قد تشهد به أمارات كثيرة، فلماذا لا يقود العلماء حركة حزبية سرية صحيحة، للإطاحة بالسلطات الاستعمارية والعميلة، واستعادة مجد الإسلام الغارب، ما داموا لا يستطيعون تحقيق هذا الهدف، بحركتهم الفعلية؟!

ج ـ لما يلي:

أ ـ إن الحركة الحزبية، ليست سوى بند من بنود الديموقراطية في مجال الشعب، والإسلام الذي ينكر الديموقراطية أشد الإنكار، لا يمكن أن يتخذ من الحركة الحزبية وسيلة لتحقيق ذاته في المجتمع، ما دام لا يكون انتهازياً، ومن مبادئه الأساسية: «لا يطاع الله من حيث يعصى».

ب ـ إن الإسلام لا يؤمن بالحركة السرية، لأن الدين الذي يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ـ رغم أن مجال النجوى غالباً، لا يتجاوز الامور الشخصية البسيطة جداً ـ لا يمكن أن يجعل العمل السري طريقه العام. هذا علاوة على أن الحركة السرية تستتبع الأكاذيب الصريحة، والأيمان المزورة، وكل نوع من الخداع والالتواء.

ج ـ إن العلماء يرون: ان الإسلام عقيدة، وعمل منبثق من عقيدة، فترتكز كافة فروعه وأنواعه، على جذر واحد، هو العقيدة. والعقيدة ثقة فكرية يجب أن تتولد من تراكم الأدلة والشواهد الواقعية المحايدة، في القاعدة ـ حتى تكون عقيدة واقعية، لا عقيدة اسمية فقط ـ ثم تتدرج من القاعدة إلى القمة، لا أن تنقضّ من القمة على القاعدة، شأنها شأن قوانين الضرائب والعقوبات، وتنفذ بعنف السلاح... فان نبع الإسلام من الصميم، وجرى في مساربه العفوية الطبيعية، يكون ديناً قاعدياً، تتحطم على صخرته الضربات، دون أن تؤثر فيه. وأما لو انقضّ من القمة على القاعدة، فإنه لا يستطيع فرض نفسه على الأذهان، فيفشل قبل أن يعبر عن واقعه، ويحقق ذاته بذاته، ويصطدم مع الاذهان الثائرة التي لا تعترف بالعنف، فيحدث هزة عظيمة، تنتهزها السلطات المترصدة له، للتعاون مع تلك الهزة في سبيل القضاء عليه. ومن ثم تلفها الإشاعات والتهريجات القائلة بـ «ان الإسلام غير قابل للتطبيق»

للقضاء حتى على رصيده المتخلف في القلوب.

والأحزاب الإسلامية ـ كبقية الأحزاب ـ ليست محاولة لمعاطاة الحقائق وتبادل الأفكار، من أجل اشاعة الوعي الصحيح ـ حتى يطغى على الحكم، فيكون ارتفاعاً من القاعدة إلى القمة ـ وإنما هي محاولة للسيطرة على الحكم، من أجل تطبيق الإسلام بقوة الحكم، لا بقوة الحقائق الإسلامية نفسها. فيكون التطبيق آنذاك انقضاضاً من القمة على القاعدة. ومن طبيعة هذا النوع من العمل أن ينتهي لا بتطبيق الإسلام، وإنما بخسارة الإسلام رصيده العقيدي الموجود.

د ـ إن «حركة الفقهاء المراجع» ليست حركة متطفلة، وطارئة على الجهاد، حتى تبدأ الأمة تجارب الثقة لها، وتبدأ هي تجاربها للأمة والعمل والحياة، وإنما تمثل قيادة أصيلة، نابعة من صميم الأمة وواقع الإسلام، وعميقة الجذور في حياة الأمة، وكيانها الفكري والعملي. كما تملك تجارب ألف عام أو يزيد، وعطاء صراعها الدائب العنيف مع السلطات الأجنبية، والمحلية المنحرفة، منذ غيبة الإمام المنتظر (عجل الله تعالى فرجه) حتى اليوم... فهي غنية بالخبرة السياسية والاجتماعية التي تجعلها على بينة من الأمر، وماضية مرسومة مدروسة، انتهجها قبلها الأئمة الأطهار عليهم السلام، وطوى كثيراً من مراحلها الأجيال الغابرة من العلماء الأعلام، وستمارس الأجيال الصاعدة من العلماء، نفس الخطة، بجد وصبر وإصرار ـ إن لم تحدث تطورات جذرية عالمية شاملة ـ حتى يحكم الله، وهو خير الفاصلين.

فليسوا على مفترق الطرق، وفي نقطة البدء، حتى نعرض عليهم المخططات التي توحيها إلينا فوضى الأجواء العالمية، ونحاول تقييمها،

وترجيح بعضها على بعض، لفرضه عليهم. وليسوا ضاربين في التيه بلا دليل كيما نحاول قيادتهم واستدراجهم في الخلايا الحزبية الضيقة، ونملي عليهم واجباتهم تجاه الإسلام، في الوريقات المبتورة التي تدس في جيوبهم في الشهر مرة أو مرتين. وإنما العلماء، هم القادة المجربون، للعمل الإسلامي، بكافة أساليبه ومختلف مرافقه. والقائد يجب أن يتّبَع (بالفتح) لا أن يتّبِع (بالكسر). وأما القائد الذي يتبع غيره، فهو مقود لا بد أن يترك القمة، ويحشر في القاعدة مع الملايين.

وكل مسلم ـ ما لم يبلغ رتبة الاجتهاد ـ يكون أمامه واجب الاتّباع، ويحرم عليه أن يتخطى واجبه إلى ما تملي عليه نفسه، أو يسول له الشيطان، من العمل بالرأي والتصدي للقيادة.

فالعلماء مسؤولون عن السير وفق خططهم التي ترشد إليها آراؤهم، ولا يصح لهم الانتماء إلى أحزاب أو تكوين أحزاب. وهم لا يستطيعون استعادة مجد الإسلام، ما دام الناس ـ حتى العاملين منهم في الحقول الإسلامية ـ متفرقين عنهم، أما لو تجمع حولهم الناس، وانصاعوا لقيادتهم، فسيجدونهم أقدر على استعادة مجد الإسلام، كما يحشد التاريخ لهذا الواقع أكثر من دليل ودليل.

***

١٢ ـ كل هذا صحيح.. غير أن عالم اليوم يدور على حركة الأحزاب، التي تسفر عن نفسها في ظل الحكومات الديموقراطية، وتسر نفسها تحت الحكومات الدكتاتورية. وحركة الأحزاب، هي التي تدير عجلة الحياة، في الحكومات الديموقراطية والدكتاتورية معاً.

وما دام العلماء لا ينهضون بقيادة الأمة، على الصعيد الحزبي، فإنه يجب على الأمة ذاتها ان تتكتل أحزاباً، وتبحث عن قائد بر أو فاجر ما دامت تريد الحياة.

ج ـ إن عالم اليوم لا يدور على حركة الأحزاب، وإنما العالم يدور على حركة الحكومات، التي لها نوع آخر من النظام والأسلوب...

وأما الأحزاب، فلا تمثل إلا جانباً من الفوضوية السياسية، التي تجتاح عالم اليوم، وتصيبه بالارتباك والويلات، دون أن تعبر إلا عن شهوة الحكم في النفوس المنافقة، والمتاجرة بشعارات المظلومين.

والأحزاب لا تدير عجلة الحياة، بل الحكومات هي التي تدير عجلة الحياة وعجلة الأحزاب معاً، فتسخّر قسماً من الأحزاب لتأييد مشاريعها، وتسخّر قسماً لضرب أعدائها، وتبقي الأحزاب التي تنصاع لها ضعيفة بائسة تحت الأضواء، لتبرهن بها على ديموقراطيتها.

والعجز الذي يطبع نهوض الأمة، ليس نتاج فشل «حركة الفقهاء المراجع»، وإنما نتاج نكول الأمة نفسها عن العمل المخلص في سبيل الإسلام. ولا أدل على نكول الأمة عن العمل المخلص، من تفرقها أشتاتاً متناقضة تضرب حتى ارفع القيم الإسلامية، وترفض حتى أهم مقومات الإسلام.

و «حركة الفقهاء المراجع» ـ كما سبق ـ حركة زاحفة حكيمة، تحتوي على نوع دقيق من النظام. وإذا حق أن الأمة جادة في العمل لدينها، فلماذا لا تنتمي إلى «حركة الفقهاء المراجع»؟.. ولكنها غير جادة وغير مخلصة في العمل الإسلامي، وإنما تكون جادة ومخلصة في العمل

لتسلم المناصب والمراتب، فتزدلف حول أي حركة تجدها أقرب إلى الحكم. وفي الآونة الأخيرة، حيث حدثت عند الأمة ردة فعل جماهيرية، نتيجة لفشل النظم الوضعية، وتدفقت عاطفة إسلامية واسعة في صفوف الأمة، عرفت جماعات من الانتهازيين هذه الفرصة المتاحة، فسارعت إلى تكوين أحزاب إسلامية، لاستدراج هذه العاطفة الإسلامية، في سبيل صياغة سلالم منها إلى الحكم، فهي تتاجر بالكلمات، وتتشدق بأعذب الألفاظ، لاستدرار أكبر قسط من هذه العاطفة.غير أن العلماء لم يكونوا يوماً بهذه الدرجة من السذاجة، حتى تغرر بهم الكلمات المعسولة الخلابة ـ وإن خدعت جموعاً من الشباب المتحمس ـ بعد ما أرخصوا الضحايا، والعرق والدمع، والدم، مئات المرات، ومئات السنين، وفي كل مناسبة ومجال. كلا، إنهم يفحصون الجماهير المزدلفة في كل مكان، بنظراتهم الثاقبة العميقة، ويَزِنُون النوايا والمجتمعات، ثم يعملون بمقدار ما يجدون من الصدق والإخلاص.

وليس هذا النوع من العمل، خمولاً، أو نكولاً، واتقاء من الكفاح المرير، ولكنه الفكر الحصيف، الذي يفكر بحساب ويحرك بحساب، ولا يندفع مع الشباب الصاخب المتدفق، إلى حيث يريد هو أو يريد له الآخرون بل إن الإندفاع مع الأراجيف والتهريجات، طيش، لا يجدر بالقيادة كل من يتوسم به.

ولا يعني هذا إنكار وجود المخلصين بين العاملين في المجالات الإسلامية، وإنما يعني أن المخلصين، الذين يتطوعون بالجهود البناءة بلا متاجرة أو رياء لا يشكلون ـ في مجموع هذا الضجيج الصاخب في كل مكان ـ سوى أقلية لا تمثل قوة محركة يمكن الاستناد إليها، في خوض

المعارك الدائرة على المستويات الرفيعة، فيستند إليها العلماء في اقتحام الملاحم التي تكون في مستواها.

***

١٣ ـ وإذا حق ان للعلماء اقلية من المخلصين، فلماذا لا يؤلفون منهم أحزاباً، ليكونوا أقدر على العمل للإسلام؟...

ج -

أـ ان العلماء يرون ان الحركة الحزبية غير منسجمة مع طبيعة الإسلام، لأن الحركة جزء من الديموقراطية والديموقراطية لا تنسجم مع الإسلام.

ب ـ ان حوادث التاريخ، ومجاري الوقائع في طول التاريخ الإسلامي وعرضه، تشهد بأن الحركة الحزبية لا تنجح في ظل الإسلام. وان كل نجاح تحرزه الأحزاب إنما يكون في ظل الديموقراطية. وعلى هذا الضوء لا يمكننا الاعتراف بأن العلماء لو ألفوا من أصحابهم المخلصين أحزاباً كانوا أنجح منهم الآن، بل ربما فقدوا النجاح الموفر لهم بالفعل.

ج ـ ان العلماء لا يرون تكوين الأحزاب، لهذين السببين أو لغيرهما من الاسباب التي لا يجدون من الصالح العام نشرها. وفي مثل هذه الحالة لا يصح ان نصر على العمل الحزبي، بحيث إذا كوّن العلماء احزاباً ننصهر فيها، وان لم يفعلوا ألّفنا نحن احزاباً نعمل فيها بالاستقلال عن «حركة الفقهاء المراجع»، ما دمنا نعترف بأن القيادة الإسلامية الصميمة تنحصر في قيادة العلماء، إذ لا يصح من القاعدة فرض آرائها

على القيادة الفكرية، بعد اعترافها بأنها قيادة فكرية حكيمة مجربة. لأن المفروض ان القيادة التي تسنمت مسؤوليتها بالكفاءة الذاتية ـ لا بالانتخاب الارتجالي ـ تكون ابصر بالحلول التي تتبناها لمعالجة الأزمات من القاعدة. ومن شأن القيادة انها تحتفظ بالاسرار، وتنشر الخطط والنتائج، فآنة ترى المصلحة في شرح سياستها للجماهير، وطوراً تجد الحكمة في الاستئثار بسياستها، وإن أثار ذلك سخط الجماهير. وفي كلتا الحالتين، يجب أن تطاع القيادة وتحترم، لتستطيع اداء مسؤوليتها كقيادة، لا أن تشترط القاعدة عليها اتباع منهج معين. فالفكر أبداً يتجه من القمة إلى القاعدة، والعمل يرتفع من القاعدة إلى القمة.

والعلماء، يحركون المخلصين، بنظام لا حزبي يستثمر طاقاتهم، ولا يمنيهم بجمود الأحزاب، وخبطها وانهزامها فهل يضر إذا لم يكن اسلوب العمل حزبياً؟..

***

١٤ـ ولكن... ماذا يفعل الشباب الملتهب، الذي تعذبه الطاقة الثائرة في اعماقه، ويحلم بالمستقبل والرتبة والراتب، وهو يرى اقرانه المنحرفين، ينشطون في كل مجال، ويرتقون المناصب الرفيعة، ويكسبون الرتبة والراتب. وهو أيضاً يريد أن يعمل وينجح ويصخب. ويستطيع.غير أن الإيمان المتحرك في ضميره، يدفعه إلى أن يريد التعبير عن نشاطاته في سبيل الإسلام، وبالوسائل الخيرة، فان وجدها افرج عن ارادته الدافعة، وإن لم يجدها اقتحم في كل وادٍ بلا استئذان.

ونحن لا نستطيع أن نقول للشاب المتفتح المتطلع إلى المستقبل: لا تحلم بالمستقبل، وتجاهل العظمة والارتفاع والالتماع. كما انه ـ بدوره ـ

لا يطيق ان يهمل النشاط البناء في كيانه، حتى يأكل قلبه وتفكيره، ويضغط على نفسه وأعصابه، ليبقى خاملاً تشده إلى الأرض أفكار وتقاليد. وحتى لو تكلف الضغط على واقعه برهة، فإنه سرعان ما يتحول إلى الكبت الذي يعقبه الانفجار المبيد.

ولسنا بصدد إنكار التصميم الإسلامي، في مجال القيادة والعمل، وإنما نريد حلاً للأمر الواقع، الذي نكرهه أشد الكره، ولكنه واقع يفرضه مجتمع اليوم، بالرغم منا ومن كل انسان لا يملك حق تقرير المصير. وكل ما تقوله وإن كان حقاً ليس أصدق منه كلام، إلا أنه ليس حلاً عملياً يفرج ازمة الشباب.

ج ـ إن هذا الكلام صادق في مفرداته، ولكن جملته تعبر عن الانتهازية، التي لا تدخل في عمل إلا وتشله عن التفاعل الحر، والانتاج الصحيح.

فالشاب المتحمس المندفع، الذي لا يستطيع أن يصمد مع الحق في الأزمات، ويترك مركزه كفرد مسلم عليه مسؤولية الإسلام، إن وجد المناصب والرواتب في الجانب المناوىء للإسلام، هو انتهازي مائع، ينهار أمام الأرهاب، وينجرف مع الإغراء، وسيكون في المطاف الأخير نصيب الشيطان، ولا يصلح أن يكون عضواً في حركة إسلامية تحارب كل ميوعة وانتهازية، ويحاربها المستعمرون والعملاء، بالإغراء والإرهاب.

إنها تحتاج إلى رجال أشداء، تزول الجبال عن مراسيها ولا تساورهم الريب والشكوك، رجال من نوع علي وأبي ذر وعمار. فإن وجد

نظائرهم، أو من يدأب على سنتهم يعود الإسلام على أيديهم إلى الحياة مهما قلّوا. وإن وجد عبّاد المناصب والرواتب، وأصحاب الصخب والضوضاء فلن ينتصر بهم، وان كانوا أكثر من زبد البحر، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

***

١٥ـ الواقع ان هذه الادلة تركتني نهب القلق الفكري ولست أدري ماذا أقول لك، ولكن اسمح لي، أن أعترف لك بحقيقة قد تفسرها بالضعف والانهزام، غير اني أضعها بين يديك للتعبير عن رأيي. وهي أني لا أستطيع إخضاعك بالمنطق والبرهان، لأني لم أدرس فن المناظرة، ولم أمارس مقارعة الحجج بالحجج..

ج ـ ولكن ـ أيضاً ـ لا أستطيع أن أصدقك فيما تقول، وليس من حقي أن أخضع لكل كلام يتفوه به انسان، دون أن يسنده المنطق والدليل.

***

١٦ـ ولكن تلميذ الحياة، وابن التجارب، التي مارستها أمتنا المعذبة، طوال كفاحها المرير، مع المستعمرين والعملاء، وإني أرى على ضوئها، أن الأحزاب الإسلامية، تنتج منجزات ضخمة، تفشل دونها «حركة الفقهاء المراجع».

وبهذه الظاهرة أستدل على أن هذه الحركة فاشلة، لا يصح الاستغناء بها، لأنها لا تنتج ما تنجزه الأحزاب الإسلامية.

ج ـ إن من السهل الادعاء، ولكن من الصعب الصدق.. فـ:

أ ـ ماذا فعلت الأحزاب الإسلامية، طوال عمرها، الذي يربو على

نصف قرن من الزمان؟.. ومتى أنجزت عظيمة رغم صخبها الواسع في كل مكان؟.. وأين نجحت رغم جمعها المال والسلاح والأفراد باستمرار؟ وفي أي وقت استطاعت إسقاط حكومة أو إقامة حكومة، وسن قانون ملائم مع الشريعة، أو إلغاء قانون مناقض للشريعة؟ وما هو ذلك البلد، الذي اخرجته الأحزاب الإسلامية من ظلمات الكفر والفسوق، إلى نور الفضيلة والأخلاق.

إنها دائماً تهتف، وتصفّق، وتخطب، وتتراكض، وتتجمّع، ويُسرّ بعض أعضائها كلمات في آذان بعض، ويدس بعض أعضائها مناشير وأوامر في جيوب بعض، وتسب العاملين، وتستهزىء بالمفكرين، وتزدري بالزهاد، ثم لا تنجز شيئاً، كالسحاب الخُلّب، الذي يرعد ويبرق، ثم لا يمنح القطر.

وأظهر برهان على الفشل التام لجميع الأحزاب الإسلامية انها لم تظفر بالحكم في أي جزء من أجزاء الوطن الإسلامي الكبير ـ رغم أن هدفها الأول والاخير هو الحكم ـ في الوقت الذي أصبح الحكم في كل مكان على جناح بعوض، حتى يناله الأفراد بالحركات الفردية الوقتية، رغم أن أكثرهم كانوا في بدء حياتهم أبعد الناس عن الحكم، ويبرهن على ذلك نظرة في تاريخ حياة الملوك ورؤساء الجمهوريات في العالم كله.

ونظائر هؤلاء كثيرون في التاريخ الحديث، بل إن أكثر رؤساء الدول الحديثة، كانوا من الطبقة الدنيا، ثم انتزعوا الحكومات المختلفة الابعاد، من الملوك والرؤساء الأقوياء. وفي هذا الجو العالمي المرتبك، لم تستطع الأحزاب الإسلامية إقامة حكومة واحدة، صغيرة أو كبيرة،

وأي فشل أكبر من أن جميع هذه الأحزاب، عبر أعمالها الدائبة، طوال نصف قرن أو أكثر، لم تعادل فرداً واحداً من العاملين.

ب ـ إن الأحزاب الإسلامية، لم تكن أبداً، أجهزة مستقلة، عن «حركة الفقهاء المراجع»، بل الأحزاب الإسلامية أجهزة متطفلة على العلماء، تأخذ منهم وتحرف عطاءهم.

لأن العلماء، هم الذين يقومون بنشر الوعي الإسلامي الصادق، في كافة مرافق الأمة، بلا توجّس أو تمييز، ويقيمون الأجواء والشعارات الإسلامية في كل مكان، وينصبون المنابر والرايات، ويؤلفون الكتب والمجلات.

وهذا التاريخ، وهذه صفحات الحياة، تشهد بأن الحركة الإسلامية الواعية، تنبثق من العلماء، وان العمل الصادق والأجواء والأمة للعلماء، وأن مقارعة السلطات الأجنبية والعميلة، وتقديم الضحايا والخسائر على العلماء، وإن الفكر والاجتهاد لدى العلماء، وأن رص الصفوف، وتجميع الأشتات المبعثرة من اختصاص العلماء.

وأما الأحزاب الإسلامية، فإنها تتألف من الشذاذ، الذين ترفضهم «حركة الفقهاء المراجع»، فيتجمعون هنا وهناك، أحزاباً، ويرفعون شعارات خلابة، لبناء أنفسهم، لا لبناء الإسلام، وللتخلص من مركب النقص فيهم، لا للتخلص من الكفر والفسوق العالميَّين. ولنفس السبب لا يكون أي شيء من أعمالهم لله وللصالح العام، وإنما تكون جميع أعمالهم لخدمة مصالحهم الخاصة، فيبخسون كل ما لله، ويثمنون كل ما لشركائهم. وعلى هذا الأساس، يحكمون حين مفاضلة وتقييم الأفعال

والأقوال، فيقدرون الأشياء بمقياس نتائجها المصلحية، لا معطياتها المتحررة من الاعتبارات الخاصة.

وجميع منجزات الحياة الحزبية، تتلخص في نشر قسم معين من الوعي المغلوط، هو الوعي الحزبي الاستهلاكي، ضمن نطاق ضيق محدود، هو الجو الحزبي الخانق، وحيث لم يؤتوا من الخبرة الفكرية، مرتبة تؤهلهم لاستقاء الإسلام من مصادره الاصلية، ولا يمكنهم المتاجرة باسم الإسلام، إذا كانوا مجردين من ثقافته، يلجأون إلى العلماء، للتشبع من وعيهم، ثم مناوأتهم فيما بعد.

أو تحسب أن أعضاء الحزب، يتغذون، بالمنشور السري الهزيل، الذي يدس إليهم في كل شهر مرة أو مرتين، كلا.. إنهم يستقون وعيهم من المنابر، والكتب، والمجلات، والأجواء، والشعارات، التي ينتجها العلماء وحدهم. ولذلك نجد الأحزاب، حتى في تكتيكها الحركي، لا تستطيع الاستغناء عن العلماء ـ وإن ملأت أشداقها بالتبجحات والفخفخات الأنانية ـ فتترصد للعلماء لتجرف بعض ضعاف النفوس من أشباههم، بالتملق والوعود، للمتاجرة باسمه وبثقافته.

غير أن العلماء، يعملون بإخلاص وكتمان، فيظن الأغرار أنهم لا يعملون، والأحزاب الإسلامية تعمل برياء وكبرياء، فيظن الاغرار أنها تعمل.

١٧ـ صحيح أن الأحزاب الإسلامية تتجمع من الشذاذ، الذين ترفضهم «حركة الفقهاء المراجع»، ولكنها ـ على أي حال ـ تساهم في تشييد الصرح الإسلامي، فلماذا لا تسمحون لها بحق الحياة، لتعيش

«حركة الأحزاب الإسلامية» مع «حركة الفقهاء المراجع» جنباً إلى جنب؟..

ج -

أ ـ إن «حركة الفقهاء المراجع» محاولة قيادية مشروعة، و«حركة الأحزاب الإسلامية» محاولة قيادية غير مشروعة، وليس من حقنا أن نسمح بقيام أي شيء لا يقره الإسلام.

ب ـ إن إعلان السلام بالنسبة إلى تكثر القيادات للأمة الواحدة، يعني إعلان الحرب على الأمة، التي على حسابها تقوم هذه القيادات، لأن «حركة الفقهاء المراجع» محاولة قيادية، و«حركة الأحزاب الإسلامية» محاولة قيادية، ولا تجتمع للامة قيادتان معاً، إلا لتعلنا تمزقها وانهيارها.

ج ـ أما لو سمحنا بالتعايش السلمي لـ «حركة الأحزاب الإسلامية» جنباً إلى جنب مع «حركة الفقهاء المراجع»، فإن الأولى منهما لا تسمح للثانية بحق الحياة.

فإن الأحزاب الإسلامية، لم توجد تلقائياً في البلاد الإسلامية، وإنما أوجدها الاستعمار، الذي حاول ضرب العلماء بكل وسيلة وسبب، فلم يفلح، فالتجأ أخيراً إلى تكوين الأحزاب الإسلامية، لضرب العلماء. ولكنها ـ أيضاً ـ وسيلة فاشلة، لأن الشعب للعلماء، ولا يزال الشعب للعلماء ـ رغم الردة الجماعية التي تطبع ظاهرة حياته ـ فلا تحين ساعة الصفر، إلا ويعلن الشعب عملياً: إنه للعلماء، وللعلماء حتى الابد..

ولكن الأحزاب الإسلامية، حيث تختصر فلسفة وجودها في ضرب

العلماء، لا تحاول أن تشعر بالحقائق الحية إلى جانبها، وانما تعلن منذ استهلالها مناوأتها الصريحة للعلماء، وتتوسل لتبرير حربها الملوثة ضدهم بأنها تعمل والعلماء لا يعملون، رغم أنها لا تعمل شيئاً، وإنما تثير الصخب والشغب والانشقاق، عن نشر عدد يسير مضحك من المناشير الشهرية أو نصف الشهرية، التي تحتوي على أفكار كلها أخطاء، وتحسب أنها بذلك، تنتج عمل الأنبياء المقربين، وتستحق ثواب الملائكة الكروبيين، وتظن: أن كل من لا ينضم إليها كافر ملحد عميل، لا ريب ولا شك، مستدلة بالفلسفة الطائشة: «من لم يكن لنا كان علينا». ثم تبدأ في تسخيف جميع الناس، واتهام البشرية والإنسانية بالرجعية والجمود والانحراف، والنيل حتى من العلماء الأعلام، والأئمة المعصومين عليهم السلام.

وقد يستبد الجهل والغرور بالحزبيين، حتى يظنوا أن الله خلق الجنة لمن أطاعهم، ولو كان فاسقاً منحرفاً، وخلق النار لمن عصاهم، ولو كان ملكاً رسولاً، ويحسبون أن في مجهودهم الضحل الهزيل، تبريراً للتطاول على كل عظيم، وينظرون إلى الدنيا من زاوية أحزابهم، حتى كأن الله لم يخلق سواها، وكأن كل شيء سواها تافه حقير.

ولهذه الأسباب، لا يصح الاعتراف بالأحزاب الإسلامية، ولا يجوز حتى تقرير وجودها في قائمة المنحرفين، لأنها عدوة إن لم تضربها ضربتك... وهي تبدأ بك إن لم تبدأ بها، كما نجدها تهادن السلطات الاستعمارية والمحلية، وترص الصفوف مع الشيوعيين والبعثيين، لضرب العلماء الأعلام.

***

١٨ـ إذن، فماذا نصنع؟.. هل نهمل العمل للإسلام، ونجلس على التل للتفرج على القوى المتصارعة الرهيبة، حتى تقضي علينا بلا مقاومة أو دفاع؟..

ج ـ كلا.. ليس لنا اتخاذ موقف المتفرج من أحداث عالم اليوم، بل لا بدّ من توحيد الصفوف تحت قيادة موحدة، تضمن لنا النصر النهائي، إذا خضنا معها المعركة. ولا يمكن أن تكون تلك القيادة متمثلة في «حركة الأحزاب الإسلامية»، لأنها قيادة غير مشروعة، والقيادة ـ إذا كانت غير مشروعة ـ لا تستطيع مهما حاولت تجميع القوى. لأن المؤمنين الصامدين ـ الذين يكتبون النصر في المطاف الأخير من كل معركة ـ، لا يعترفون بها أبداً، فتفقد جبهة الأمة أهم عناصرها في المعركة المصيرية. بالإضافة إلى أن أولئك المؤمنين الصامدين، لن يخلدوا إلى الجمود، إذا تحيز الناس لقيادة غير مشروعة، وإنما يتألبوا حول القيادة الحقيقية، لفتح جبهة جديدة في المعركة، فتنقسم جبهة الأمة إلى جبهتين، ويستغل الأعداء هذا الانقسام لإضراء العداوة بينهما، ريثما تتصارعا، فيصرعوهما معاً في الجولة الأولى.

وهكذا لا محيص من انضواء الأمة، تحت القيادة الصحيحة، وإذابة القيادات المتطفلة فيها، لتوحيد جبهة الأمة، كي يكون عملها صحيحاً، وكي تدرأ عنها مغبة الانشقاق، وتحرز النصر عاجلاً أو آجلاً.

فعلى كل من يحاول العمل الصحيح، المأمون عن الانشقاق، والمضمون له النجاح أن يندمج في «حركة الفقهاء المراجع».

***

١٩ـ يا فرحتنا لو عمل العلماء، وأخذوا قيادنا إلى حيث النصر، ولكنهم لا يعملون العمل الذي نفهمه، ونستطيع أن نندمج فيه.

ج ـ الواقع: ان العلماء يعملون العمل الصحيح الناجح، وصحيح أن أكثر الناس في الوقت الحاضر، لا يستطيعون أن يفهموه بسهولة، والسبب في ذلك أن الناس عاشوا الأجواء الدكتاتورية أو الديموقراطية، بتطوراتها وأساليبها الحديثة، حتى أصبحت مفاهيمها قطعة واعية أو غير واعية من حياتهم. وبمقدار ما عاشوا السياسة الحديثة، ابتعدوا عن السياسة الإسلامية، فعليهم ـ متى أرادوا العمل الصحيح للإسلام ـ أن يسلخوا فترة التبلور من السياسة الحديثة، والتشبع بالسياسة الإسلامية، حتى يتمكنوا من فهم مغزى «حركة الفقهاء المراجع» ويتجاوبوا مع العلماء في الأعمال التي يمارسونها. وأنا أعترف بأن طي هذه المرحلة، يتطلب مزيداً من الصبر والضبط، ولكن العودة إلى الحياة الإسلامية الصحيحة، لا تتم بيسر وسهولة، وعلى من يحن إليها: أن يتأهب لتذليل العقبات، واستمراء الصعوبات.

***

٢٠ـ ولكن كيف نندمج في «حركة الفقهاء المراجع» وليس لها في الوقت الحاضر جهاز منظم، سوى عدد من الوكلاء، الذين لا يملكون مؤهلات الحركة في الأوضاع الراهنة؟!

ج ـ وكيف لا يوجد لـ «حركة الفقهاء المراجع» جهاز منظم؟.. مع أن لها ـ في كل وقت ـ قائد، هو المرجع الأعلى، وفروع ممتدة إلى أقصى البلاد الإسلامية، يمثلها الوكلاء، الذين يتلون المرجع في الوعي العميق للإسلام؟..

وكيف لا يصلح هذا الجهاز لقيادة الأمة، وكان هذا الجهاز يصلح لها لو سمى نفسه باسم «الحزب؟».

فبدلاً من أن يكون في كل بلد، سكرتير الحزب، يكون وكيل المرجع، ومجرد تسميته «وكيلاً» دون «سكرتير»، لا يجعل النظام صالحاً أو فاشلاً، ولا يكون فارقاً إلا بأن الوكيل ـ بحكم تمثيله المرجع الأعلى ـ يكون متضلعاً في الفقه الإسلامي، في الوقت الذي يكون فيه السكرتير ـ بحكم تمثيله الحزب ـ غير متضلع في الفقه الإسلامي.

وبدلاً من أن ينتمي الفرد إلى سكرتير الحزب، يتصل بوكيل المرجع.

وليس هناك فارق في نوعية العمل الذي يقومان به، سوى أن الوكيل يعمل في النطاق الجماهيري العام، والسكرتير يعمل في النطاق الحزبي الضيق.

وبدلاً من أن يقود الحركة فرد، أو أفراد، من أصحاب المطامع الشخصية، يقود الحركة المرجع الأعلى، ولا فارق بينهما، إلا في أن قادة الحزب يكونون غير مجتهدين في الفقه الإسلامي، في حين يكون المرجع الأعلى، أعلم المجتهدين بالفقه الإسلامي.

***

٢١ـ صحيح.. ولكن العلماء لا ينهضون بالأعمال السرية، حتى يتمكن الإنسان من الانطلاق فيها نحو الأهداف الكبيرة.

ج ـ العلماء عندما يرفضون الأعمال السرية، يكونون على جانب كبير من الوعي السياسي والإسلامي معاً. لأن الأعمال الواسعة البعيدة الآماد، لا تبقى سرية على أجهزة الاستخبارات الحكومية، وإن بقيت

سرية على أفراد معدودين من الناس، وإذا اكتشفت الحكومة حركة سرية، تتبعها وتضيف إليها الشكوك والشبهات، حتى تجعل من حركة أفراد معدودين، حركة رهيبة تهدد مستقبل البلاد، وتضبط كلمات الأفراد المتهمين بانضمامهم إلى تلك الحركة، لتفسر كل لفظة قاسية منها بهدف من أهداف الحركة، فتكسب المبرر لملاحقتها، بدقة وانتباه، في سبيل القضاء عليها.

والحركة التي تكون مراقبة مطاردة، لا تستطيع القيام بالمشاريع الضخمة، ولا تقوى على التعبير عن واقعها، لكسب ثقة الناس.

ولأن الإسلام، لا يعترف بالحركة السرية، لأنه أبداً يدعو إلى الصراحة والصدق، والمجاهرة بالحقائق، وينهى عن النجوى بين اثنين، في الأمور اليومية البسيطة، فكيف يعترف بالحركات السرية الواسعة، التي تكهرب الأجواء بالفزع والذعر، وتسبب الشكوك والريب بالنسبة إلى الجماهير.

***

٢٢ـ الإسلام لا يعترف بالعمل السري، وقد كانت دعوة النبي ﷺ إلى الإسلام دعوة سرية في بادىء الأمر؟..

ج ـ ومتى كانت دعوة النبي ﷺ إلى الإسلام دعوة سرية؟.. إن الأحزاب الإسلامية، خلقت هذه التهمة للنبي ﷺ وللإسلام، ولتبرير انحرافها، ولكن التواريخ تكذبها، وتشرح بإسهاب، مدى مجاهرة النبي ﷺ بدعوته منذ «يوم حراء» حتى «يوم الغدير».

فأكثر التواريخ والتفاسير، يتفق على قصة البعثة، التي نلخصها كما يلي:

كان الرسول ﷺ منذ شبابه مولعاً بالعبادة لله، بعيداً عن ضوضاء الحياة، فربما كان يستغرق في العبادة، في زاوية من المسجد الحرام، وأحياناً كان يشخص في «غار حراء» متفرغاً للفكر والعبادة، بعيداً عن كل ما يشوه صفاء الفكر والقلب.

وفيما كان ذات يوم في «غار حراء» إذ مثل له جبريل عليه السلام، في هيكل ضخم، وأخذ بعضده، وهتف به: «اقرأ يا رسول الله!» فقال الرسول ﷺ: «ما اقرأ؟» فضمه جبريل وهتف به: «اقرأ يا رسول الله!» ثم ارسله، فقال الرسول ﷺ: «وما اقرأ؟» ثلاثاً، ثم قال جبريل عليه السلام:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

فرجع الرسول ﷺ إلى بيته مرتبكاً مرتعداً، فاستقبلته خديجة قائلة: «ما هذا النور الذي أراه في وجهك؟» فقال الرسول ﷺ: «إنه نور النبوة! قولي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله!». ولما قالت، انتحى الرسول ﷺ جانباً، وقال: «دثروني، دثروني»، فدثروه برداء، حتى إذا هدأ روعه، نزل عليه جبريل بالوحي:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[1] فنهض الرسول ﷺ، يدعو الناس إلى الدين الجديد، الذي هبط عليه منذ بضع ساعات.

وهكذا كانت دعوة الرسول ﷺ علنية، منذ ساعاتها الأولى،

---

(١) هناك اختلاف بين المفسرين، في أول سورة نزلت على الرسول ﷺ؛ فالمشهور على أنها سورة «إقرأ» وبعض على أنها سورة «المدثر»، وإذا كانت سورة «المدثر» أول سورة نزلت على الرسول ﷺ، فهي أدل على كون دعوة الرسول علنية منذ ميلادها.

وليست هناك دلالة ولا إشارة، في المصادر الأصيلة، التي تقص بعثة الرسول ﷺ، على ان دعوة الرسول ﷺ كانت في يوم من الأيام سرية.

كل ما هنالك: إن النبي ﷺ عندما أعلن الإسلام، وسفّه أحلام الكفار، وسب آلهتهم، وجلب شبابهم، تألبوا عليه وعلى المسلمين معه، فقاطعوهم مقاطعة عامة. وانقطع الوحي عن النبي ﷺ ثلاث سنوات، ريثما تهدأ ردة الفعل التي حدثت عند المشركين، فقعد النبي ﷺ عن الدعوة إلى الإسلام، لأن الوحي لم يكن يأمره والأجواء كانت مقفلة في وجهه.

فتوسل الحزبيون بهذه الفترة ـ في الدعوة إلى الإسلام ـ للاستدلال على أن دعوة النبي ﷺ كانت سرية، رغم أن فتور الداعية عن الدعوة موقتاً، لا يعني كون الدعوة سرية، ولكن الحزبيين لا يشعرون.

بل الواقع أن سيرة النبي ﷺ لعوامل خارجية وإرادة قيادية، صفحة مفتوحة، تشهد بأن دعوة النبي ﷺ كانت علنية إلى أقصى حدود العلنية وجهرية إلى أبعد حدود الجهرية، وصريحة إلى أبلغ آماد الصراحة والوضوح.

وكان يتجاهر بصورة لم يتجاهر بمثلها داعية أبداً، فلم تكد تنزل الآية الكريمة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ حتى دعا جميع رؤساء العرب، وألقى عليهم دعوته، رغم استنكارهم لها أشد الاستنكار، حتى إنهم جعلوا أصابعهم في آذانهم، وقابلوه بالسب البذيء. وكانت لدعوته العامة طريقتان:

أ ـ إنه كان يمشي في شوارع مكة، والقرى المجاورة لها، ويهتف بأعلى أصواته: «أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»، وفي بعض

الأحيان كان يمشي خلفه أبو جهل منادياً: «أيها الناس! ابن أخي هذا كاذب فلا تصدقوه»، وقد كان الناس يرشقونه بالأحجار وربما كان الأطفال، يسيرون خلفه مستهزئين مهرجين، ولكنه كان يدأب في نشر الدعوة بإرادة فولاذية، تسخر بالتوقف والتردد.

ب ـ إنه ـ كان في مواسم الحج ـ يجلس في حجر إسماعيل عليه السلام، ويرفع صوته بتلاوة القرآن، على غرار ما كان معهوداً في الجاهلية، من إنشاد الشعراء قصائدهم، وتباهلهم بالأشعار مستغلين تجمع الحجيج، للمكاسب الدعائية. وكان من الطبيعي أن ينتصر القرآن على الأشعار كلها، ومن الطبيعي كذلك أن يثير هذا الانتصار الدعائي السريع حفيظة السدنة، الذين كانوا يتزودون لسنتهم، من الضحايا والقرابين، التي يقدمها الحجيج للأصنام التي كان النبي صلى الله عليه وآله يدعو إلى نبذها، فكان سراة العرب، يحاولون صدَّ الناس عن نبيِّهم، ويتوصلون إلى ذلك، بكل ما يمكنهم التوصل إليه. ولم يغفلوا أن يجعلوا القطن في آذان الحجيج. وإذا عزَّ عليهم القطن جعلوا الحشيش في آذانهم محذِّرين عنه أشدَّ التحذير.

بهاتين الطريقتين، امتدَّ الإسلام، حتى ضرب بجناحيه في كل أفق. ومن الواضح أن تينك الطريقتين، ليستا من الطُّرق السِّرية، التي تستخدمها الأحزاب في حركتها.

***

٢٣ـ إن من التحجر أن نجمد في نشر الإسلام، على الأساليب الخاصة التي استخدمها الرسول لنشر الإسلام، في ذلك الوقت المبكر، بل الواجب أن نأخذ واقع الإسلام، ونتبع الأساليب الحديثة، في تنفيذه. فالهدف الأساسي هو واقع الإسلام، وليست الأساليب الخاصة، التي

استخدمها الرسول ﷺ، لأنَّ الأساليب ممّا يتطوَّر مع الظروف، ولا يجب اتّباع أساليب الأمس لليوم، ولا أساليب اليوم للغد، وأمَّا الشيء الذي لا يمكن التخطّي عنه، فهو واقع الإسلام فحسب.

أ ـ إن الإسلام لم يترك للداعية حرية انتهاج الأساليب التي تروق له، ولم يقتصر في تصميمه على أهداف معينة نظرية، لا تعنى بطرق تطبيقها، بل تهملها للظروف والأحداث والتطورات، وإنما الإسلام نظام كامل للكون والإنسان والمجتمع. والنظام الذي يعنى بتنسيق كل صغيرة وكبيرة من حياة الفرد والدولة والمجتمع، لا يمكن أن يهمل طريقة تنفيذه نفسه. وإلا لكان ناقصاً، ومعرضاً للمناقضات. وهو بالفعل لم يهمل هذا الجانب، وإنما نص عليه في الآية الكريمة: ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، فعلينا أن نتتبع الحلول التي عرضها النبي ﷺ لا ان نرتجل الحلول، لأنها بند صميم من واقع الإسلام، وليست خارجة عنه حتى يمكن استبدالها بما تشاء، وإن من تخلى عن الأساليب المقررة لتطبيق الإسلام فقد تخلى ـ بذلك المقدار ـ عن واقع الإسلام.

ب ـ إن الإسلام دين عقائدي، يكون الهدف منه تصعيد المستوى الإنقيادي للإنسان، أكثر من ترفيع المستوى الإجتماعي له. ويعمل لإرضاء الله أكثر مما يعمل لإسعاد الإنسان. وهو محاولة لتحقيق القيم المعنوية، أكثر مما هو محاولة لتحقيق القيم المادية. ومثل هذا الدين، لا تقدر مكاسبه بحجم الإنجازات المادية التي تربحها وإنما تقدر بأصالة العبودية التي تعمقها، فلا بد أن تكون أساليبه نابعة من صميمه، لتكون أوفر وأقدر، على تحقيق أهدافه المثلى، لا أن تكون مستوردة متطفلة، تعرقل سيره وعطاءه.

ج ـ إن النوعية أبداً، ملحوظة في الاستثمار، فمن زرع الشوك لا يجني الرطب، ومن غزل الشعر لا يلبس الاستبرق، ومن ركز في الأرض غصن البان لا يستثمر التفاح والبرتقال. كذلك من نهض بالأعمال الديموقراطية، لا ينعم بالإسلام. وهذه الأساليب الحديثة ـ غالباً ـ ديموقراطية أو دكتاتورية، وهما لا تنتجان سوى الديموقراطية والدكتاتورية. ومن حاول التوصل إلى الإسلام، بواسطة هذه الأساليب، لا يزيد وعياً عمن حفر في الأرض، ليبلغ النجوم، أو يتصيد السمك في الهواء.

***

وهكذا.. نخرج من هذا البحث، باستخلاص النتائج التالية:

١ـ إن الحركات العاملة، التي تصدت لقيادة الأمة، تنحصر في «حركة الأحزاب الإسلامية» و«حركة الأعمال الفردية» و«حركة الفقهاء المراجع».

٢ـ إن «حركة الفقهاء المراجع»، هي وحدها، الحركة الصحيحة، النابعة من صميم الإسلام، وأما «حركة الأحزاب الإسلامية» و«حركة الأعمال الفردية»، فهما أجنبيتان عن واقع الإسلام، وإن تطفلتا عليه.

٣ـ لا يمكن ترميم العجز، الذي حدث في واقع الأمة، بفقد العناصر الأربعة الأخيرة من عناصر النهضة الجذرية للامة، وهي: «وعي الأمة لمبدئها وقيادتها» و«إيمانها المطلق بهما معاً» و«ثقتها بنفسها كأمة تستجمع مؤهلات النهوض في المستقبل» و«تنفيذ الأمة، لذلك المبدأ ـ في واقعها ـ بإيحاء تلك القيادة». ولا يمكن معالجة المشاكل التي نجمت

من ذلك العجز، بواسطة الحركات المتطرفة، التي تعزل صميم الإسلام، وتعيد نفسها من خلف ستار ـ فالحق ـ لا يتبرعم عن الباطل، والنفاق لا يتفتح عن الإخلاص ـ وإنما يمكن بناء شخصية الإسلام، بحركة تؤمن بالإسلام ذاته أكثر من هدفها الشخصي، ولا تحاول إسلاماً يوصلها إلى الحكم، بقدر ما تحاول إسلاماً يبلغها الجنة ورضوان الله. وهذه الحركة ليست التي يتفلسف لها المتنطسون، في «حركة الأحزاب الإسلامية» ولا التي نرتجلها بخبراتنا الخاصة، في «حركة الأعمال الفردية»، بل هي التي نص عليها الإسلام نفسه، في «حركة الفقهاء المراجع». فبهذه الطريقة وحدها، نستطيع إعادة الإسلام إلى الحياة، بصورة تطبع ابعادها، وترتسم على أعماقها وسطوحها.

الفهرس